المجلس الأعلى للثقافة

الهمسة الصاخبة

مجموعة قصصية

للقاص : أحمد عبدالله متولى

الهمسة الصّاخبة

(مجموعة قصصية)

للقاص : أحمد عبد الله متولي

• المصيدة •

يمشى على الرصيف .. بين موجات من اللحـم البشرى .. الساخن .. اللزج يشعر بغربة رغم الزحام .. يمشى متهدلا .. يحمل طائر الحزن على كتفه .. تتصفح عيناه لافتات الدكاكين ، والمشارب ، والحوانيت المنزوية فى اشتباه .

يقطع الطريق منحنى فجائى ، العين لا تعى هذا السـيل من الصور . لايدرى كيف وصل الى هذه البقعة الصغيرة من العـالم ، هذه البقعة الهائلة .. الغاصة بالأسواق والهمهمات ، والوجـــوه البليدة ، المتخشبة .

غابات من الاسمنت .. وحين أراد شقة لم يجد .. الأرقام المطلوبة فوق طاقة أى موقف ، أرقام فلكية .. ولحل المشكلة .. كان النفى الى الخارج لخدمة الآخرين أو النفى الى الداخـل وحين عرض على خطيبته أن يعيش فى الواحات .. أو فى الصحراء .. اتهمته خطيبته بالجنون وهاجمته حمـاته .. وقالت لابنتهـــا : اما قلت لك .. انه مجنون رسمى !

سيل من المطر الأسود ينهال على قلبه ، وعلى المدينة ، والذى يؤلمه كل الألم .. هو أنه لا يعرف الحل . اتهمه زملاء العمـــل

بانغلاق التفكير .. وانه (لا يتفاهم) (. ماذا لو تغاضى عن بعض الشكليات) . (يا أخي عش ودع غيرك يعيش) ، (الدنيا قرش) العالم كرش ! همهمات جهنمية .. همسات هي مسامير في نعش الفؤاد ..

يمشي في دروب طويلة .. يطرد هواجس الهاموش .. يمنع اللون الرمادى أن يتسلق الى ضميره .

كيف انتهى به البحث عن شـــقة .. الى لا شيء .. غـرفه مفروشة صغيرة فوق السطوح .. غرفة على شكل حـرف ل .. وصالة صغيرة .. مستديرة مثل حبل المشنقة .. صاحبة العقار سيدة بشعة تعرف ما تريد .. وكثيرا ما ترتطــم به على السـلم أثناء انقطاع التيار الكهربائى .. الأمر صدفة !

انزوى في ملابسه .. تنكمش أعضاؤه في داخـله .. يأتى متأخرا كل يوم لأنه يمشي بلا هدف .. يجوب المدينة الفسيحة .. ويعود كل ليلة وقد دب الارتخاء في قدميـــه .. يضع الجريدة اليومية تحت ابطه . وربما كتاب شعر . وكيس به بعض العشاء الخفيف جبن ، زيتـون أسـود زيتـون أخضر ، جبنـه رومـى .. وأحيانا بسطرمة .. أو قرطاس به بيض .. وقليل من الخبز .. يأكل حتى تمتلأ معدته .. وهو يتناول الطعام وعيناه على الجريدة ..وأذناه مع الراديو .. يستمع الى دشيش الأقطـــار البعيدة ، ويمزج ملح طعامه بأخبار الهزائم والنكسات .. والتبريرات العقيمة .. وربما استوقفه خطف طائرة .. عرب .. يخطفون عربا .. وصور لضيفات جميلات مقتولات (وكانت تصعد الى سطح المنزل .. امرأة أربعينية .. لا شك انها صاحبة المكان .. هل جـــاءت تطلب الهواء النقى .. أم تطل من فوق السطح على واجهة البيوت الأخرى .. وأحيانا يجلس في يوم الأجـــازة .. يأتى بالكرسي

وكأس الشاى .. والجريدة ولكنه يستمتع أكثر برؤية النمل وهو يجرى فى الشوارع .. وعلب صفيحة .. ملونة .. تقطع اشارات المرور ..

وأحيانا تفتعل الصدفة نفسها .. وتأتى السيدة الجريئة .. تطلب من يونس وحدتها ! .. كانت لديها الجرأة .. العينان تلتهمان كل شيء .. الوجه الممتلئ .. الساعد البض .. المليء بالأساور الذهبية وخاتم ماسى .. ولون شعرها الأسود يحيط بوجها العريض .. يعلوه أشارب أحمر .. لايدرى .. ربما يتوهم أن لديه دائما فرصة متاحة ، لكنه لا يعرف لماذا يخاف .. انها امرأة جميلة .. غنية .. سهلة .. تأتى اليه مثل رشاوى الصباح، لكنه أعلن الصوم عن الطعام واللحم .. شيء فى داخله يدعوه لرفض دعوة عالم متآكل .. اختلطت فى أعماقه معانى الطموح ، والاستشهاد . كان يجرى وراء أوهام .. العلم بلا حدود .. الفن بلا تخوم .. الفكر هو المستقبل . ولكن قدماه متورمتان .. نعم حفيت قدماه على سكن يصلح لعائلة وهمية .. يمكن ان يكونها فى المستقبل .. الكل يطلب جزية تقصف الظهر .. لايدرى .. لماذا يتقزز من عالم متهافت .. رغم انه ابن تاجر بسيط ينحدر من سلالة فلاحين بسطاء .. جاءوا للمدينة هربا من انغلاق القرية .. وربما وراء سراب أوهام .. وربما وراء الخبز القمحى الطازج .. أو السهر .. أو نساء أهل البنادر .. وكانت النتيجة .. مخيبة للبعض وباهرة للبعض الآخر .. انفصل البعض عن البعض .. أبوه كان دائرة تدور فى التيه .. وراح يلعق ـ الأب ـ أوهام السعادة مع لقمة دسمة .. معمولة بيد امرأة جميلة .. ويتقلب فى فراش ناعم .. أفضل بكثير من النوم على حصيرة جافة فوق الفرن .. فى حوارى طينية .. وليالى شتوية وهو من صلب رجل لا يعرف طعم الخصوصية .. فلا مانع عنده ان يعيش مع عدة أسر

.. فى شقه واحدة .. نظام التكنات .. مما جعل صاحبنا يمقت هذه اللزوجة .. واختلاط الأنفاس .. والأجسـام التى لا تمنع يد لامس .. وأضـحى صاحبنـا يعانى ويتنفس الغربة والغرابة والاستغراب .

ماله يتنفس الماضى المعبق برائحة الغبار .. ماله لا يتوقف عن ذكريات سرطانية .. وخلايا خبيثة .. انه دائما كان يبحث عن الخصوصية ..

انه يمشى .. يطول به الطريق .. تطالعـه عشرات الوجـوه ومئات الأسماء وآلاف الأمكنة وملايين الألوان وتهاويل التفاصيل..

ولكن هل ابتعد كثيرا .. أم أن الأشـياء هى التى ابتعدت عنـه ؟

سألته صديقته فى الجامعـة . ذات يـوم مشمس .. تحت شجرة جميز عتيقة .

ــ الا تضع لمستقبلك خطة ؟

لايدرى ماذا يقول لها .. ولا يدرى لماذا تحرك فكره ..

قال : المستقبل بيد الله ..

ابتسم .. لكنها راحت تقلب السؤال بجدية

ــ ألا تؤمن بخطة ؟ الا توجد عندك خريطة ؟

لا أمل فى التوقف قال : ماذا تعنين بخطة ؟ وهل حياتنـا نهندسها بخطط ؟ .. لا أعرف هل هندس أبى زواجه من أمى .. ولا أدرى لماذا اخترت هذا المكان لأجلس فيه دون غيره !

ضمت كتبها على صدرها الصغير .. وقالت وقسمات وجهها الجميل يقطر جدية :

ـ حينما يدخل الطالب كلية الطب .. يعنى ذلك انه اختار مهنة الطب وأنه لن يعمل فى الهندسة أو المقاولات أو تصنيع الجبن .. هناك دائما تصور لما نعمله .. أليس كذلك ؟

ـ لا أدرى ما أقول لك .. ولكنى عرفت من درس الطب ثم اشتغل بالأدب واشتهر بالشعر والقصة . وعرفت من درس الهندسة واشتغل بتجارة الأجبان والألبان ..

وكأنها وصلت الى نقطة معينة .. فقالت : ولماذا نتخذ الشواذ قاعدة . الطريق ممتد .. واللافتات مكتوبة بحروف عربية ولاتينية .. يتوارى خلفها أو أمامها الوجه الجميل ..

وذات مرة سألته صديقتـــه : أراك تهتم بالأدب وهو ليس تخصصك ؟

ـ هواية تستبد بى !

ـ تذكر الأدب هواية .. وليس مهنة

ـ أترين ذلك ..

ـ بكل تأكيد .. من قال أن الانفعالات مهنة

ـ هناك من يحترف الأدب

ـ لا أتكلم عن المطبعجية !

يتوارى مرة أخرى الوجه الجميل ، الذكى المثقف .. الوجه الجميل ، ونسى القوام الجميل .. كان غيره أذكى منه .. لقد رآها بعد سنوات التخرج .. تجـرى فى حديقـــة مع أربع أطفال .. تلاعبهم بالكرة .. ويجلس الى جانبهم رجـل ممتلىء .. عرف أنه زوجهـــا .. صاحب معرض سيارات .. كم تغيرت صديقته .. أصبحت بدينة .. ثقيلة .. قوية .. أصبحت امرأة ! . دخـل

سوبر ماركت .. تذكر أن الثلاجة خاوية .. لكنه لايكف من تأمل الوجه .. شراهة الناس .. السيدات جميلات .. شرسات .. لهن خبرة هائلة فى اللحوم .. يقلبن البضائع بأصابع مدربة ! .. والناس زحام .. الكل يختزن أكبر كمية من البضائع .. على قدر مافى جيبه من نقود .. كأن الحرب معلنة وهو لايدرى .. كأنهم سيموتون غدا ! .

خرج من المحل الفاخر المكيف .. يتصبب عرقا .. انه لا ينسى اتجاه البيت .. وصل .. راح يصعد سلالم عتيقة ، لكنها نظيفة .. كانت صاحبة البيت .. الأربعينية .. ترمقه من وراء الباب الموارب .. ترتدى أفضل ثيابها .. راحت تسوى شعرها وتضع الروج على الشفتين فى اتقان .. سمعت المرأة صوت خشخشة فى المطبخ . آه الفار الملعون .. انه يلعب على مهله هنا وهناك .. لابد أن أضع الطعام الجيد له فى مصيدة جديدة .. ابتسمت للفكرة « سأضع له طعما لذيذا » .. لن يفلت من يدى مرة أخرى .

أرهفت الأذن .. سمعت الرجل وهو يصل الى غرفته فوق السطوح .. لابد انه سيجد الضوء الكافى أمام الباب .. ويجد قصرية الزهور .. والترتيب الجميل .. فى المدخل .

الهدوء النسبى .. الناس مشغولون فى برامج التلفزيون الملون .. امتدت يدها الناعمة لتلتقط قارورة غالية الثمن .. راحت تسكب على صدرها .. وعلى تفريعة الثديين .. وتحت الابط وخلف الأذنين .. وقررت الصعود لتجميع الغسيل ..

ربما تمطر السماء فى الصيف ! من يدرى .. وربما تهب موجة غبار ! فتحت الباب .. سمعت باب المصيدة يرتطم بشدة .. وخلفه الفأر المتمرد ..

ابتسمت .. وقررت الصعود الى أعلى ..

• المباغت •

لا ٠٠ لن نستمر فى هذا التدهور ٠٠ تجارتى لاتنمو فى الحرب ٠٠ هذه ليست حربا ٠٠ هذه مجزرة جهنمية ٠٠ أتسمعنى ؟ ٠٠ انه الجحيم ! ٠٠ القصف دمر كل ما نملك ! ٠٠ أتسمعنى يا أخى ؟ ٠٠ كانت يده ترتعش وهو يمسك بسماعة التليفون ٠ قال الآخر : اذن تعالوا عندى ٠٠ هنا العمل والمال والأمن ٠٠ لاتتردد يا أخى ٠٠ كل شىء مرتب من أجلكم ٠٠ تعالوا !

انتهت المكالمة السريعة بين البرازيل ولبنان ٠٠

كان يجمع أوراقه بعصبية ٠٠ شعره الأسود ينسدل على جبينه ٠

وصاح فى زوجته : هيا يا امرأة ٠٠ لا وقت لدينا ٠٠ خذى ما خف حمله وغلا ثمنه أتركى كل شىء ثقيل ٠٠ أرجوك ٠٠ لننفذ بجلدنا ٠

كان التلفاز لا يكف عن بث الصور الملونة للمذابح والطلقات النارية واجتماعات على مستوى عال ٠٠ وخرق متصل للاتفاقيات !

قال فى قرف لزوجته : هذه ليست حربا أهلية ٠٠ فالحروب الأهلية تنشأ بين عقيدتين أو فكرتين ٠٠ أما هذه المجازر ٠٠ فبين مرتزقة ٠٠ والولاء ليس لفكرة أو وطن ٠٠ وانما لمن يدفع أكثر ٠

ـ « آمل أن نخرج قبل اغلاق المطار ، فكل شيء سينهار » ـ وبلا وداع ٠٠ غادروا الشقة ٠٠ الرجل والمرأة وطفلهما الصغير ٠

ولم يتنفس الصعداء الا فى الطائرة ٠٠ حيث المضيفة الرائعة الحسن تقدم الطعام والحلوى والمشروبات ٠

التفت الى شماله فوجد من يبتسم له فى أناقة وهدوء وود ٠٠ فى صفاء لم يألفه ٠٠ لوجه لم يمسه تراب قط ٠٠

سأله : أتعرفنى ؟

قال الآخر : تمام المعرفة !

ـ من أنت ؟

ـ لاتستعجل المعرفة ٠٠ فى الطريق ستعرف !

وبعد استراحة طويلة ٠٠ وجد نفسه مشدودا الى ذلك الشخص الغريب الذى لم يتعرف على جنسيته أو لغته !

ـ من أنت !؟

ـ أنا عزرائيل ٠٠ سوف أقبض على أورواحكم هنا ٠٠ والآن ٠

ظن صاحبنا نفسه فى كابوس ثقيل ٠٠ أو انه أثر الشراب ٠٠ وفجأة اهتزت الطائرة بعنف ٠٠ ارتجف ٠٠ صرخت المرأة ٠٠ تمزق هدوء الجميع ! ثمة طيور غريبة تهاجم محركات الطائرة ٠

نظر الى الشخص الذى كان يحادثه ٠٠ لم يجده ! ٠٠ أهى

الأوهام والأخيلة والسمادير ! ولكن الاشارات المضطربة ·· والفزع ·· فوق أى هواجس !

ذهنه لايستوعب ما حوله ·· يتحرك كأنه محموم لم يفق من برسام الحمى · وارتطم جسمه بصلب الطائرة التى كانت تتحول الى كتـلة من اللهب فوق الأمازون ·· تسـقط ·· فوق أرض داهمها الليـل ·

● عامود النار ●

هجمت على الخزانة .. أخرجت رسائل الحب القديم .. مجرد أوراق وردية تلوثت بأحبار .. جمعتها فى وعاء كبير وأشعلت فيها النار . جرفت النيران بقع الشمس الباهتة التي كانت تراقص عينها أيام الحب !

تقلب النيران .. تتوهج الأيام الوقحة .. الثقيلة ، الشمس فى الأفق شاحبة .. النيران تلف حول الوجه المتصلب والدموع المتجمدة .. ثم تمتد الى كل كيان المرأة .

اللهب يلعق الوجه .. حمرة شديدة مشربة بالمقت .. غضب يسحق السحر فى الملامح الدقيقة !

سوف تخلع الاسود الى الأبد .. انه كان يعرف امرأة أخرى! كانت مخدوعة بالكلمات المعسولة « أقمت الحداد ثلاث سنوات وخلعت من دربى كل المباهج .. كان حيا رغم موته .. كنت أعيش كل ليلة مع رسائله وغرامياته » !

« حين جئت جئت أيها العزيز .. انفتحت أمامى أبواب الآمال العظام وقفت خلفك بالجهد والمال حتى صرت من أصحاب المال

الكبار .. وصار لك اسما له رنين الذهب .. وكنت تضيع كل ارهاقى بكلمة واحدة .. أحبك .. » يا للفظاعة !

ريقها يجف كانها شربت جميع البحار المالحة ..

حين جـــاء (فريد) يخطبنى .. رفضت بـلا أدنى تفكير ! قلت له بحسم : لن أتزوج من بعد حسنى » !

وقف لى باحترام .. وحزن ودهشة ! .. وكلما مرت الأيام والشهور .. يزداد الحداد حدة ! وارتدى الأسود من الداخل .. حتى صارت نفسى كالبئر المهجورة المظلمة !

أخيرا قال فريد : فكرى فى الأمر يا وردة .. فكرى فى الأمر .. فأنا أحبك قبل أن يراك حسنى .. وحالت بينى وبينك ظروف قاسية لقد ابتعدت وأخذك هو .

ـ كل شيء قسمة ونصيب .. وأنا سأعيش العمر كله فى ذكرى حسنى .. محبة ووفاء .

ـ ولكن .. الحى أبقى من الميت ..

ـ لا تقل ميت .. فهو فى وجدانى يعيش .. صورة جميلة خلابة ..

وبعد أيام جاء فريد .. ودمر الصورة .. (ها .. الوفاء للوفى والموت لايفصل بين العشـاق .. أنت واهمة .. زوجك ـ حسنى بك ـ كان على علاقة بعديد من النساء !

ـ أتحداك ..

(قذف فى وجهى بعدة رسائل كلها بخط حسنى .. وصور مع النساء .. صور صحيحة مائة فى المائة .. والخطابات تحمل

نفس الصياغة .. نفس الجمـل .. كأنه ينقلهـا من كتاب دون تغير .. وأحزم بنفس القلم ! .. وتذكرت السهريات المتعددة التى كان يتذرع بها للابتعاد عنى .. والصفقات الهامة التى يعقدها فى فرانكفورت وروما ولندن .. ويلغى غيابه بقطع من الحرير أو الذهب أو زجاجات العطر النادرة !) .

راحت تقرأ ما خلف الصور .. كلمـات الحب والهيـام .. فريال وعبير وسعاد وسارة .. عشرات الأسماء ..

تصرخ كلمات فريد فى أذنيهـا : « وزجك المرحـــوم ! .. زير نساء .. ودموعك على كازانوفا .. مجرد شاهد على مهارته وقوة تأثيره ! كم دفع فريد للحصـول على هذه الصور والحكايات العجيبة .. وكيف تنسى له التقاطها من أماكن متباعدة مختلفة ؟ :

تتذكر كلمات فريد .. « من حقك أن تعيشى .. لن ترتدى الأسود بعد اليوم .. أليس كذلك ؟ » .

لا .. لن تتزوج فريـد أو غـيره .. بـــل لن تتزوج على الاطـــلاق !

النيران فى سبيلها للانطفاء .. الألوان تتحول من الأبيض الى الأحمر الى الأسود .. تقلبها فى قســـوة .. تزم شـفتيها ، العينان قاسيتان .. الأسنان تتطابق فى تصميم .

الوعاء يمتلىء بالرمــاد .. خمدت النيران تحت أظافرهـا .. سوف تغسل الرماد بسطل ماء .. وتقذفه فى المرحاض !

وراحت ترتدى ثيابا حريرية .. وتأمر خادمتها بعمل أطيب الطعام وأن تنوع الفاكهة .. وأن تعد وليمة فاخـرة .. وصرخت لابد من فتح جميع النوافذ .. لابد من دخول الصـــباح على ليل بيتى ! .

قالت لخادمتها المذهولة : سأتناول العشـاء في الشرفة ·· أريد الهواء النقي ·· النقي !

لكن الطعام كان باردا ·· انتقل اليه الرماد الأسـود ·· تيبست قدماها ·· الألم ينغرس في فخذها ·· يرن جرس تليفون·

ــ كيف حال وردتنا ·

ــ مرحبا فريد ·· أحتاج طبيبا ·· لا أستطيع تحريك قدمي ·· بسرعة أرجوك ·

وسمعت عصفورة تزق على غصن لين ·· فابتسمت ·· وراحت تشرب الشاي بالحليب·· وتذكرت صورة معلقة في الجدار ·· نادت الخادمة أمرتها أن تنزلها فورا ·· أخذت الصورة بين يديها وقذفت بالبرواز الى الأرض · تناثر الزجاج ·· رأت ابتسـامة تطل في سخرية ·· فصرخت النار تطهر كل شيء ·· النار ·· النار !

وراحت تشعل الوجه الجميل ·· يطـل من الصـورة ·· غندور ·· عيناه سوداوان ·· شعره الفاحم المصفف ·· أسـنانه البيضاء تصلح اعلانا لمعجون الأسنان · (لابد أن يتفخم هذا الوجه القذر) وتذكرت أنه وجه لاعب بوكر !

وراحت النيران تشتعل في فخذها ، وصـدرها وقلبها ·· تلتهم غصون شجرتها ··

تراقب النيران في نهم ·· النيران تزحف على الملامح الكاذبة ·· تلتهمهـا ·· وصرخت وردة على الخادمة ·· هاتي الجـاز ·· وراحت تجمع ثوب الفرح ·· البرودرية الأبيض ·· وبذلة حسني المعطرة ·· وكل كتبه وملفاته وأقلامه ! ·· حتى قداحة سجائره ··

الليلة ·· ليلة العقاب !

وهجمت على كل شيء ‥ كل شيء كانت تحتفظ به ‥ وعليه بصمة من بصماته ‥ وتذكرت فجأة أن كل شيء من صـــنع يده أو باختياره لا بأس ‥ الجاز ‥ الجاز ‥ وأشعلت النيران مرة أخرى ‥ الخادمة تخاف ‥ « ســـيدتي أنا ذاهبة الى بيتي ‥ زوجي وأولادي ينتظروني » · قالت وردة في عنف وقسوة : في ستين داهيه أنت وهم ‥ هيا هيا أغربي عن وجهي ·

(آه الى بالجاز ‥ لابد من حرق كل شيء ‥ كل شيء ‥ كل شيء واجتاح المكان ضوء مبهر ‥ ينطلق عامود من النـــار ‥ رآه الجيران يأكل قلب الليل ·

٥ يوليو ١٩٨٤ ـ القاهرة

● الحب فى قطار الفجر ●

وقعنـــا فى حيرة .. أنا وزميلى ، حقائبنا الكثيرة ، والحركة ما بين الصعود والهبوط من تحت الأرض الى ظهر محطة السكة الحديد ، وحيث كان أمامنا بضع دقائق ليتحرك القطار من برلين الى حيث يذهب بنا حتى آخر المانيا جنوبا ..

كنا كريفيين يتجولان . أوربـا المتنوعة اللغات والألوان .. وكان القطار الدولي شأنه كشأن كل شىء يعمل فى أوربا .. يتميز بالمواعيد الدقيقة الصارمة .

وصافحت العيون الأربعة .. جمـال حسناء تقف فى نافذة القطار .. بيضاء .. رسم جسمها الرشيق خطوطا جميلة الانحناء .. تتابع العين الخط الخارجى الذى ينحنى فى الوقت المناسـب تماما ليدخل فى صلب التكوين الرائع . يعلو رأسها شعر أصفر أجمل من بريق الذهب .. وتطل من عينين كالبحر زرقة وصفاء .. تمتد أناملها الرشيقة الى رأس صبى حلو للملامح .. تداعبه الشبـه بها .. وطئته شقيقها .. أشارت الى الديوان وقالت بدلال :

ـ لا أريد مضايقة من أحد ·· أننى هنا وحدى !

اعلان عجيب شد انتباه رفيقى وله أنف يشم المرأة من ألف ميل ، فقال لى وكأن الأمر مفروغ منه : سوف نبيت معها الليلة ·· هيا ·· هيا وبسرعة كانت الأذرع تحول الحقائب فى نشاط ·· وبعد اعتراض بسيط منها كانت تساعدنا فى تنظيم الحقائب على الحوامل المعدنية المرتفعة فوق الرؤس ! ·· ثم دار الحوار السريع ـ بالألمانية ـ بين صاحبى وبينها عن الجو والبرودة ·· أما الطفل الوديع فكان فى حوالى السابعة من العمر ·· والتقطت أذنى من شفتيها بعض مقاطع من أغنية فرانكو آراب تقول « يا مصطفى ·· يا مصطفى ·· أنا باهبك يا مصطفى » فتأكد صاحبى أنها مرت على بصمة من فرسان الليل العربى ··

فانتعش وقال لى كمن صدقت فراسته : أنها ليلة مباركة ! أى والله ليلة مباركة ·· كمن يقول أما قلت لك ·· ان اعتراضها هو فى الصميم دعوة للمؤانسة ·· بطريقة المرأة اللعوب !

كانت الرحلة بالقطار ليلا ·· سبع ساعات تقريبا يقطعها القطار من برلين فيقطع كل ألمانيا حتى شمال ايطاليا مرورا بالنمسا ·· وتبادلنا تدخين السجائر ·· وكان معى زجاجة « لتر » من الكوكاكولا فقدمت منها للصبى ثم لأمه ولزميلى ·· وخلعت المرأة ـ فجأة ـ حذائها الأحمر اللامع ·· وتمددت على الكرسى المخملى الذى تحول بضغطة صغيرة الى كنبة ·· وفعلنا مثلها ·· وابتسمت المرأة لزميلى ابتسامة مشحونة بالارتياح وامتدت أصابعها الرشيقة لتطفىء نور الديوان ·· كان يؤرقنى أن يشاهد الطفل أى شىء ·· ولكن الطفل يتمدد ويسند رأسه فى اطمئنان تام كمن ينام فى بيته على سريره ! ··

كانت المرأة الصغيرة ذاهبة الى حيث يعمل زوجها المهندس ، والمقيم فى روما ٠٠ وقالت انها عاشت لمدة أسـبوعين (وحيدة) بدون زوج !٠٠ لتزور أسرتها ببرلين ٠٠ فاحتواها صاحبى بجسمه كالثعبان الذى يتمدد على غصن لين ٠٠ وكان للقبلات صوت يخترق الظلام قطـار النولى من عينى ٠٠ وكنت أعطيهما ظهرى وأتلهى بمناظر جبال الألب المرتفعة الى مالا نهـاية ٠ كجدار بين السماء والأرض ٠ ولكنها فى ليلنا هذا داكنة السواد ٠٠ جاثمة ، ثقيلة ٠٠ كاحزانى الممددة على صدرى ٠٠ تركت « الديوان » بحجة الذهاب للحمام ٠٠ ووقفت أمام نافذة فى القطار ٠٠

البلاد تجـرى بسرعة هائلة ٠٠ المنـاظر تلعق بصرى ٠٠ ولا أدرى كيف ارتبط الوجود كله بسرعة ما يتدفق خلال العين التى لاتشبع من النظر ٠٠ وضغطت على مشاعرى بعشرات التفاصيل ٠٠ كم ذبحتنا أيام البطالة بوجهها البشع وكم تألمت لرؤية السكارى والذين ينتحرون فى الهدوء والصمت واللا عمل ! وكم سافرت الى أعماقى صورة طفلتى وهى تودعنى وتدعو لى بالرزق والخير ودموع زوجتى التى تحبسها فى اصرار ٠٠ ووجدتنى أسـبح فى خواطر الصقيع ٠٠ ثم رجعت للديوان ٠٠ فوجدت صاحبى وقد هدأ تماما ٠٠ وكأنهسيارة شفيت من العطب ٠٠ ودعانى ـ بالعربية ـ كى أنال قسطا من الراحة ٠٠ معها ٠٠ ولكنى نفسى كانت بعيدة عنى ٠٠ وساعدنى أن المرأة تظاهرت بالتعب ٠٠ وأنقذنى تحريك البـاب بواسطة ضابط الحدود ٠٠ الذى أضـاء نـور الديـوان ليطلب الباسبورات ومعه رفيق يحمل ملفا ضخما فى حجم دليل التلفونات ٠٠ يراجع فى سرعة مدهشة بعض الأسماء عنده ٠٠

كان أمامنا بضع ساعات أخرى حتى نصل الى فيرونا فى شمال ايطاليا ثم نعمل (أو مشتيجن) يمضى نفير القاطرة ـ الى اتجـاه فنيسيا شرقا ٠٠

قامت المرأة بجمالها الأخاذ لتصلح من شأن ثوبها .. وذهبت وعادت بعد دقائق .. وكان صديقى على مشـــارف النوم بعد طول جهد .. والصبى الصغير يقـاوم البرد ـ رغم التكييف بالقطـار ـ ويغطى نفسه ببطانية صغيرة ..

قال رفيقى الذى شـاهدنى أخرج كتابا من معطفى : انهـا حلوة .. جريئة .. صبوحة الوجه .. لماحة .. بنت بلد بحـق وحقيق ..

قلت له : حسن .. حسن .. الله يبارك !

قال وهو ينظر الى كتابى بقرف : ستموت فى الأوراق .. ولن يحزن عليك أحد رجعت المرأة .. أعطيتها سيجارة كرافن .. ومددت يدى بساندوتش جبن رومى .. فاكتفت بالسيجارة ..

لمست أناملها أصبع يدى اليسرى : به خاتم ذهبى وسألت : متزوج ؟

ـ نعـــم ..
ـ يبدو أنك تحب زوجتك
ـ نعم .. ولى طفلة رائعة
ابتسمت وقالت :
ـ وأنا أيضا أحب ابنى وزوجى
لم أعلق ! .. ولكنى هززت رأسى موافقا

قال زميلى بالعربية : طيب خاطر المرأة بكلمة تبل الريق .. داهيه فى ثقافتك !

قلت له : البركة فيـك يـا أخى العزيز .. قمت بالواجب وأكثر !

وشق القطار طريقه الى محطتنا المرغوبة ·· فحولنـــا بسرعة الحقائب الى الرصيف من النافذة ·· فالوقت ضـيق دائمـا ·· ولابد من العجلة والا فاتنا القطار الآخر ·· وبينهما مسافة قصيرة ولكنها مرهقة بين الصعود والهبوط لاسيما لمن معه كل حقائبنا ·· وتلاشى دفء القطار بعد خروجنا منه ·· حيث خرجنا الى جو تحت الصفر بثلاثين درجة ·· وتكومت الحقائب على الرصيف والثلج الهش ينمو فوق رؤوســنا ··· يقول الصبى وهو يمســح رأسى (شنباى) : وداعا قالت وهى تلوح لنـا برقة متناهية : فرصـــة سعيدة ·· حقيقة انها لحظة لاتعوض ·· قلت لها : أعتنى بالطفل ياسيدتى ·· فانه ولد ظريف شــدت على يد صــديقى ثم قبلتنى بوداعه ·· وتباعدت الأكف والأيدى المتشابكة وانطلق القطار ·· وصغرت صورة النافذة التى يحتضنها القطار·· وتلاشت الا من لمعة شعرها الذى يداعب الهواء ·

وهرولنا لنلحق بقطـارنا فى اتجاه آخــر ·· يدفعنا الثلج الكثيف ويدغدغ أعصابنا المرتجفة هواء الفجر المنعش الجميل ·

● الامتحان ●

الورقة كالكابوس ·· المساحة البيضـــاء تتحداه ·· الجو خانق ·· لايدرى ما سر الأفكار العجيبـة التى تراوده الآن ! ·· المفروض انه فى امتحـــان ·· والمطلوب أن يركز انتبـــاهه فى الأسئلة ·· لايستطيع كبح جماح الأفكار ·· خيالات غريبـــة ·· كيف يقاوم العبث ؟ ·· هل ينقل الأسئلة ؟ ·· أم يرسم أشباحا !

الملاحظ يروح ويجىء ·· فى حركة مرضية ·· يحدث بحذائه صوتا مملا ! يود لو يمتلك مسدسا ·· لأسكته واستراح ·· صوت يخترق الصمت يقول : « مضى نصف الوقت » ! ·· ها ·· الوقت ·· ما قيمة نصف الوقت الآخر ! ·· لقد رأى أمه تستعد للزواج من بغل آخر ! ·· لا تمل من تنظيف نفسها من الشعر الخفيف !·· الحنة تضحك فى كفيها ·· فرحة عريضة فى عينيها ! تختـــال بشعرها الأسود الطويل ! ··

أبوه معلق فى برواز على الجدار مجرد صورة فى اطار ·· حتى وهو يتحرك فى البيت كان ·· مجرد صورة ورقية ·· ربما

لهذا السبب زهدت فيه أمه ! ألهذا السبب ؟ يسمع صوت الملاحظ : « باقي نصف ساعة » ! عليك اللعنة ! ·· ماذا فعلنا بالعمر كله !·· ما قيمة نصف ساعة أيها الحمار !

ارتمت على مخيلته صورة جده لأمه ·· وهو يقف على أطراف أصابعه صرخ فى حوار جاد مع أمه ·· حول توقيت ليلة الفرح ·· قال الرجل العجوز ·

ـ الولد فى امتحانات ·· عيب الطبل والزمر ·· ليس وقته !

ـ ما دخل الشام باليمن ؟

ـ بين الشام واليمن ·· الف علاقة ·· البر ·· والأهل ·· والحنان والمصلحة ! كانت تطالع فى مرآه ·· وتصلح من أحمر الشفاه ·

ـ نحن لانسرق يا أبى ·· هذا شيء قررناه ·· وفرغنا منه !

كانت تهز ساعدها المرصع بثعابين من الذهب وعيون من الماس !

قال الرجل فى صوت خفيض

ـ فقط أطلب التأجيل ·· الولد حساس ··

لم ينم ليلتها ·· سمع بقية الحوار الملعون بكل تفاصيله ·· وهو فى الغرفة الأخرى ·· فزوج أمه ·· متعجل ·· سيأخذها ويسافر لقضاء شهر عسل فى بلاد أخرى ! وراح يتخيل والده وهو يسبح فى السعادة مع زوجته الجديدة الصغيرة ·· وراح يتخيل أمه فى سعادة شهر العسل ! ··

وليلتها اتصل بابيه ·· فقالوا له ·· لا تحاول ·· انه مشغول جدا ··

وسمع من آخرين .. ان زوجته شديدة التأثير عليه .. وانها رائعة الجمال فى عمر ابنته ! ..

ولكنه نجح فى الاتصال .. سمع والده يقول فى عصبية .. : ماذا تريد .. نقود ..

ـ لا يا أبى .. أمى ستتزوج !

ـ تتزوج .. ما دخلى أنا .. هى حرة ! .

ـ هى امى .. وأنت أبى ..

ـ لاتكن مشاغبا .. أمك حره .. تملك أمر نفسها

ما أجمل اللا مبالاة ! .. ما أتعس اللامبالاة .. يمر الملاحظ .. ينظر اليه ينحنى عليه .. يحدق فى أوراق الاجابة البيضاء ..

ـ لماذا لاتجاوب على الأسئلة ؟ .

قال بطريقة خالية من التفكير : هه .. أحاول

ـ ألم تفهم الأسئلة ؟

ـ أبدا .. كل شيء فى الدنيا .. مفهوم .. وواضـــح .. وسهل .. وأجمل ما يكون ! فطن الملاحظ الى اللهجة الساخرة .. رجع خطوة الى الوراء .

ـ أتمزح يا بليد .. يامستهتر ؟

ـ ها .. أنت هنـــا مجـــرد ملاحظ .. لاتنس نفسك ! وأنا لا أغش حتى ترفع صوتك على !

شتمه الملاحظ بصوت منخفض ثم أضاف بصـوت مرتفع : هذه آخرة للعب والعبث طوال السنة .. شباب لايقدر المسؤولية .. شباب متسيب ! .. أعوذ بالله !

يتمشى الملاحظ كالديك الرومى ! ‥ يزداد انتفاخا وطولا !‥

لايستطيع التفكير فى الأسئلة ‥ فهناك عشرات الأسئلة لابد من الاجابة عليها أولا وقبل أى شىء ‥

كيف يمـــوت الحب بين أثنين ؟ ‥ كيف تنهـــــار أسرة سعيدة ؟ ‥ آه يا رأسى كيف تضيع السـعادة بين زوجين لديهما أطفال ‥ وبينهما عشرة عمر ؟!!!

كيف ‥ كيف ‥ كيف ‥ ولماذا الطلاق ؟ ‥

الملاحظ يروح ويغدو كأنه الاسكندر الأكبر ‥ أحد الطلبة تنفس الصعداء حين ابتعد عنه الملاحظ (روح داهيه فى أمك !) ‥ ينظر اليه أحد الطلبة يكتشف حيرته ‥ الكل يكتشف افلاسـه وتوتره ‥ يحبونه كزميـــل ورفيق لعب يريدون مساعدته بأى طريقة ‥ أحدهم يلقى اليه وريقة صغيرة ‥ ويشـاور (السؤال الثانى) ‥ لا يلتقط الورقة المضغوطة ‥ يبدو أنهـــا لتضليل الملاحظ ‥ وهو أصلا يزهد فى الغش والغشاشين ‥ يشعر بالظمأ ‥ والمرارة ‥ لايطلب ماء ‥ يشعر بالزهـد فى كل شىء ‥ يلتفت الملاحظ فيجد الوريقة (البرشام) تحت قدم الطـالب ‥ ينحنى ‥ يلتقطها .

ـ لك ؟ . هذه الورقة لك ؟

ـ لا !

قال كالكابوس : لماذا أجدها تحت قدميك ؟

ـ لا أدرى !

يقلب الملاحظ أورا: الاجـابة ‥ يجدها بيضـــاء ‥ يقطع

الوريقـــة فى عصبية ويقول بصـــوت متوتـر : « من غشنا ·· ليس منا »

تلميذ مشاكس يرد عليه · (من راقب الناس مات هما)

ـ اخرس يا غبى !

الهدوء المتوتر يسود اللجنة ·· صوت الأوراق ·· منظر الأم الطروب وهى تتزين أمام المرآة ·· تغنى ·· تستعد للأفراح والليالى الملاح ! ·· تعانق الفساتين الجديدة كأنها فتاة صغيرة ! ··· تقبل زجاجة العطر ! ·· ســـوف ترحل غدا لبيت آخر ·· مع رجـــل جديد ! ·· يســمع الزغاريد ·· « اتمخطرى ياحلوة يا زينـــة ! ياوردة من جوه جنينة » ! ·· « مبروك عليك عريسك الخفـة ·· ياعروسة يا زاينة الزفة » ! ·· قال الملاحظ فى عصبية كانه يعلن حسم معركة فاصلة :

انتهى الوقت !

• ثمن الأشياء •

الريح تصفع الشوارع والبيوت بمخالب رملية هائلة ، هرع السابلة هنا وهناك ، صارت الشوارع أصابعا تشير الى الفرار ٠

صابر ٠٠ ريشة فى مهب الريح ٠٠ يحتمى بالجدران ، يلملم أطراف ثوبه ومعطفه الأسود البالى ، يجر نفسه جرا ٠٠ عسى أن تدفئه الحركة ! ٠

(ما كان ريجب أن أخرج هذا اليوم ٠٠٠ الطبيب الزمنى الراحة ٠٠ ليس لى مكان مريح ٠٠ لست موظفا ٠٠ اما العمل أو قطع القوت ٠٠ هل يأكل أولادى من عرق أمهم ؟ ٠٠ اضطر التغافل عن أشـياء كثيرة ٠٠ أشهر كاملة لا يدخل فى جيبى قرش ٠٠٠ وأنا لن أحترف اللصوصيـة مرة أخرى ٠٠ هه ٠٠ بعرق جبينك تأكل خبزك ٠٠ فاين العمل ٠٠ وأين الخبز ٠ ؟) ٠٠ ارتمت على بصره عبارة انتخابية تصيح « انتخبوا نصير الحرية والعدالة ٠٠ »٠

ما باله ينقل قدميه فى صعوبة بالغة ، كأن الكوكب قد تغيرت جاذبيته ! ٠٠ كأن الجو مغبش بالضباب الكثيف ٠٠ ولوراق تطير هنا وهناك فى عبث ٠٠ ثمة دائرة من ضوء مبهر تكبر وتتسع ٠٠ نظر الى مصدر الضـوء ٠٠ « يا الهى أمى سـيارة قادمة بسرعة

جنونية ·· أم شيطان يحدق في بعينين ملتهبتين ·· لو أسرعت خلف عامود النور لوجدت حماية من نوع ما ·· آه ·· آه ·· ، السيارة تمرق كالسهم ·· تلتهم كل شيء ، وتدور حول نفسها كالذوبعة ·· ترتطم بأشياء ·· صوت صاج يتهشم وزجاج يتكسر ·· صرخة امرأة ·· تبددها ارتطامات شديدة العنف ·

تعاورت عيناه رؤية مرسيدس بيضاء ، وبقعة حمراء ·· وفراغ سحيق ·· يسحبه الى اللاشيء ·· أو يدفعه الى المجهول !

يحس بالعظام يطحنها الحديد ، في لحظة كالبرق ·· تلاشى واحتراق ·· وما زال الهواء يغمر رأسه ·· انه يتنفس ، ما زال قلبه يضرب كالطبل ·· النار تشتعل في صدره وظهره ·· أنفاسه تتحشرج ·· أحشائه تتمزق ألما ·· ثمة شيء ينبثق دافئا من فمه ·

نظرة غائمة ·· هواء مضطرب ·· (هل جاءت الساعة ؟) غمغمات ·· تمتمات ·· جمجمات ·· الأذن تستعيد حيويتها بعد الضربة المذهلة ! مرت الدهور والعصور ·· راح يتقلب ·· ها هي النار تشتعل من جديد في كل دمائه ·· زحام ·· دبيب أقدام ·· سارينة اسعاف ·· رؤوس كثيرة ·· سيارات بيضاء وسوداء وزرقاء وحمراء ·· وأوراق وكلمات ·· وأشخاص انشقت الأرض عنهم ·· رجال أنبتهم الليل ·· أشباح متعانقة ، متداخلة ·· مساحات ألوان ضبابية عشرات الأنياب المسعورة تعض قلبه وأحشاءه ·· يفتح العين فيرى السماء بعيدة بعيدة تعود روحه تسبح في أعماق سحيقة ·· الغيبوبة تشده الى راحة مؤقتة ، ·· مصيدة الكوابيس نفسه ، بدنه يغلي ، وتدور في المتاهات رؤياه بلا حدود ولا وعود ·

الجلد يهتز ، يرتجف ·· الحقن لا تريحه ! والعالم كله ينكمش في نبضات متشنجة · بدأت اليقظة ، ومعها سكاكين مغروسة في

كل مكان ، الجسم ثقيل ثقيل ! ضمادات ·· سجن فوق السجون ·· الحركة مستحيلة الآن ·· انبثقت السوائل الملتهبة فى العينين ! ·

جاءت امرأة نظيفة فى ملابس بيضاء ·· ترقص على شفتيها ابتسامة ·· كحيوان جميل · سألته فى عتاب مرح : أتبكى ·· أهناك رجل يبكى ·· ماذا تركت لنا !

ليتها تسمع عقله ·· أو يبكى غير الرجال الآن !

كان يسمع صوتها العذب ·· ويتابع بعينيه نشاطها ·· وحين اقتربت منه أكثر تحقق من نظافتها ونضارة جلدها الناعم ·· كأنها فهمته ·· فهمست فى مودة : أحمد الله انكتب لك عمر جديد ·· هيا استعد نشاطك وحيويتك ·· ورجولتك !

غيرت بعض الأشياء ·· أغلق عينيه رغم الكلمات الجميلة التى تعيد اليه السلام وهل يعود السلام ببضع كلمات ! ·· أسرته ·· يتذكر أطفاله الصغار ·· العذاب المستعذب ·· انه فى بعض الأحيان يغضب منهم ·· لم يعرف الخلوة الشرعية منذ قدوم ثلاثة حيوانات لا تعرف الا الصياح والمزاح فى وقت لا يطيب فيه المزاح ! الغرفة فوق السطح ·· مجرد علبة صغيرة ·· لا تحمى من حر أو قر ·· لكنها تحتوى الأحلام المؤجلة ··

ما زالوا نصف دستة تعيش فى علبة صغيرة ، هو وزوجته وأبناؤه الثلاثة والفقر !

يحس بشخص قادم ·· سبقه عطر ، ورد ، مظاهر فخامة ·· يلمح خاتما ذهبيا ·· نظارة فاخرة ·· رباط عنق ·· بدلة موهير ·· صوت عميق يخرج اليه :

ـ حمدا لله على سلامتك يا أخ صابر !

لا يعرفه ‥ لم يسبق أن دخل الى شبكة عقله المهترىء ‥ جلس الرجل بقربة ‥ يتودد اليه ‥ عرف سر زيارته ‥ وأدبه الاصطناعى ‥ وحنانه المهنى ‥

أحس بالمهانة والوضاعة والحقارة ‥ وان السخافة تتكاثر أسرع من الذباب !

أقبل عامل ومعه باقة ورد أكبر من الأولى ‥ وفى قلبهـــا تحمل اسم الفنانة العظيمة صاحبة المرسيدس البيضاء ‥ همس المحامى فى أذنه : (الفنانة متعبة ‥ ولكنها قلقة عليك ، وآسفة ، تصور هى الأخرى تحت العلاج ؟ !

ـ انت رجل مؤمن ‥ المقدر يقع ‥ والمكتوب على الجبين ‥ تراه العين !

ـ ...

ـ أتعرف ‥ أن الفنــانة سـيدة كريمـة ‥ محسنة ‥ سخية ‥ رب ضارة نافعة ، معرفة خير !

تمتم المريض لأول مرة : كيف ؟ قالهـا بضعف لا يسـمح بالمفاوضات .

ـ ربما تفتح لك باب رزق ‥ تعمل عندها ‥ وهى أرسلت لك مبلغا ضخما ‥ وتعد بالمزيد ‥ المال عندها أكثر من الأرز ‥ وأنت كلك فهم وذوق .

قال فى مشاكسة ذكرته باسلوب زوجته معه : واذا لم اقبل ؟

بأن الغرض على المحامى : دعك من الشراسة ‥ كن طيبا ‥ والا فــلا مصلحة لك فى أى شىء ‥ من قال لك ان تمشى فاقد

الوعي ؟ ترمى بنفسك على سيارات الناس : رد المريض يجرع ·· ولكن بصوت خفيض منكسر : أنا فعلت ذلك !

ـ نعم ·· وهنـاك شهود ·· وسمعوك تهدد بالانتحار في مشاجرة بينك وبين زوجتك !

ـ آه ·· وهل وصلتم لحرمنا المصون ···

ـ كن أليفا ·· لا تحرم نفسك من الثمن ·· الفرصة تأتي للرجل مرة واحدة !

ـ حاضر ·· مثل قـط ·· أليف جـدا · وهل كنت يوما غير ذلك ·

ابتسم المحامى بتودد : خذ هذا عربون المحبة · ألف جنيه ·· الم أقل لك انه الرزق جاء يخبط عليك ·

قال صابر بمرارة : فعلا جاء يخبط على بعنف ·· على عظامى ! ضحك الرجل ·· وترك رزمة النقود قرب رأس صابر ومضى على أن يعود اليـه فيما بعد سمع صـــابر أقـدام زوجته ·· تهرول كعادتها ·· جميلة ، بضة ، تكاد ترتمى عليه ، تنظر بجزع الى الأربطة والضماد ··

ـ كيف حالك ·· ه ·· الحمد لله ·· لا تؤاخذني ·· ربنا يسامحنى ·· أنا السبب ·· أنا السبب لقد أخرجتك من البيت مكســور الخاطر ·· ضايقتك بكلامى وتصرفاتي ··· صــدقنى يا صـــابر سوف أكون سيدة محترمة ·· صدقنى لم أقصـــد اهانتك ··· أنت تعرف آفة اللسان !

الدموع ·· فى عينيها ·· يكره أن يراها تبكي ·· هذه المرأة

المتوحشة كم يحبها ، وكم تمنى أن يقتلها .. كاد ينسى .. عاره اليومى !

سمعهـا تتهدج ـ أنا أتوب الى الله .. لكنـه السيف على الرقبة .. الفقر !

قال صابر : خذى النقود ! هذا ثمن عظامى !

بأصـــابع بيضاء ، ويد مدربة على النقود ، إحتوت الرزمة الورقية ..

تصنعت التعجب .. فارتفعت علامات الاستهفام فوق وجه صابر .. هل عرضوا عليها المبلغ أولا .. انها لم تسأل عن الرجل وهو يغادر سريره .. كأنه يعرفها .

سألته : تعويض ؟ . وهل وافقت بهذا المبلغ الصغير ؟-!

ـ ماذا أفعل .. هل أرفض .. القضاء حباله طويلة !

رفعت حاجبيها .. أولاد الأفاعى .. لكل شىء ثمن .. وان كنا بحاجة للمال .. فلماذا لا نفاوض قبل التنازل .. يمكن أن نحصل على المزيد .. عندها مال بالارتال .

وخزته شوكة فى حلقه .. اعتصره الألم .. تنبهت الى انه مريض .. حاولت التلطف وتغيير لهجتها المخلبية .. وابتسمت ابتسامة عضلية .. أضاءت وجهها الجميل .

ـ ماذا قال الأطباء ؟

ـ أحتاج راحة طويلة .. الاصابة شديدة ..

قالت وهى تلوى شفتها السـفلى .. لو لم يكن البيت فى

حاجة لهذه النقود ٠٠ كان لى معهم شأن آخر ٠٠٠ دعهم لى ٠٠ سأعرف كيف اعتصر قلوبهم ٠٠ كم عندى من (صابر) ٠

ـ أرجوك ٠٠ الهدوء ٠

خرجت المرأة فى رشاقة ٠٠ وقفل الباب ٠٠ وعاد الهدوء المعقم يلف المكان ٠

نظر الى نافذة الحجرة ٠٠ قطعة سماء زرقاء يداعبها غصن هزيل ٠

تناهى الى سمعه صراخ ممرضــة سمينة : « هذه البــلاوى لا تنتهى ٠٠ أف ٠٠ شيء يجنن ٠٠ صار البلد فيضانا من الاصابات والموتى ٠٠ وأشباه الموتى متى يرحمنا الله ٠٠ متى ؟ ٠ متى ؟ ٠ نحن فى سلخانة !

وكانت بطاقة الفنـــانة تطل من باقة الورد فى تحدى ، وسخرية ٠

• مقابلة هامة •

كان في غاية السعادة وهو يمشي بجوار خطيبته الحسناء ·· تتشابك أصابعهما وتطل عليهما مدنية الضوء والصخب ! ·· السيارات والباصات والدراجات والمشاة ·· من يركض ·· ومن يتسكع أمام لافتات النيون والمعروضات الجذابة في الفتارين ·

وفجأة تجمدت خطيبته في مشيتها ! ·· وقف أمامهما شاب أنيق ·· وسيم الطلعة مد لها يده ليصافحها بحرارة ! ·· التفتت لتعرفه بالشاب · « انه خطيبي السابق ! » قال لها وقد استبدت به الدهشة : فرصة سعيدة !

صاحت في أعماقه قبيلة من الغجر (فرصة زفت وقطران !·· بنت الكلب لا تكف عن اللعب بالنار !) ··· نظر اليهما الشاب الوسيم وقال بلطف وهو يرسم ابتسامة على شفتيه : حقيقى ·· انهـا فرصـة سـعيدة ، ثم خص الفتاة بالكلام : بلغى تحياتى وسلاماتى للأسرة ·· مع السلامة ! ··

ومضى الى حال سبيله ..

اشتعلت النار في جوفه .. كان يمكن أن تلطف المسألة ! .. أن تقول عنه « انه زميل في العمل » أو « زميل دراسة الجمعة » ! أو أي شيء .. أما أن تقول عنه انه كان خطيبها .. فهذه صراحة لا تطاق .. وكرر لنفسه .. صراحة ! .. صراحة .. بل وقاحة !! قلة أدب !

النيران تتأجج في أعماقه ! ... لكنه راح كانسان متحضر .. يناقش الأمر مع نفسه .. وماذا عن ذلك ؟ .. هل كان ينبغي أن تتجاهله رغم وقوفه المفاجيء أمامها ؟ . ماذا حدث حتى يغضب .. هو من أنصار (الخطوبة) .. نعم .. الخطوبة فترة لاثبات النجاح أو الفشل في مشروع الزواج ! .. لماذا يطالبها بالكذب ؟ .. هل يرتاح للتمثيل في الحيـاة .. يتذكر كلامه لها (الحقيقة لها طعم الحقيقة ولا نهم أن تكون مرة أو حلوة) .. آه .. أهي مجرد كلمات سمعها ورددها كببغاء واجه نفسك يا انسان ! .. تنهد .. يبدو انه يتألم من الصراحة .. الصراحة ليست راحة كما يقولون ! .. انه شرقي .. لا يطيق العلاقات المكشوفة .. لم يتعود على المساحات العرية .. يجتر كلامه معها .. لقد سكب في رأسها انه رجل عملي .. يؤمن بأن الماضي ملك للفتـاة قبل الفتى ! .. وتبدأ المسؤولية الفعلية بعد القران .. العبث بعد الزواج هو الخطأ البشع ! .. وهو صميم الخيانة لميثاق الأسرة وهدم لقيمة الثقة والمحبة المتبـادلة بين الزوجين ! .. هـذه كانت شعاراته ! .. قال لنفسه .. يا ولد .. هذا الكلام جميل على البعد .. لكنه غير مقبول على أرض الحقيقة .. ها أنذا أرتعد في أول فرصة .. وأسقط في أول اختبار ! مجرد مقابلة مع خطيبها السابق أحدثت زلزال ! .. لماذا .. لماذا .. لماذا ؟ كنت أعرف أنها كانت مخطوبة وفسخت

خطوبتهـا ·· ولكنى لم أسأل لماذا ؟ ·· فأين الصدمة ؟ · لماذا تتأجج النار فى كيانى ؟! ·

مرارة فى حلقـه ·· شـــوكة تمتد فى رقبتـه ·· خطيب سابق ! ·· معناهـا انســـان بشحم ولحم وأطراف ·· آه ·· أطراف ! ·· وهل كان يظنه شبحا !!

ما هذا الشلال من الحقد ! ·· ثم ان اللقاء تم فى حضورى وعلى مسافة نصف متر منى ·· فى شـارع عام ·· فلماذا هـذا البركان ؟ ·· لماذا العمى والتعصب !

كل ذلك الادعاء ·· والنيران لا تكف عن الثوران فى أعمق أعماقه !

لماذا لا يجاهر بما فى نفسه المظلمة ·· ويقول لها أن هذا الحادث كشفه على حقيقته ·· عراه ·· انه شرقى حتى العظم ! ·· فى صميم أعماقه ألف فلاح يصرخ ويحتج ·· ألف معترض على الادعاءات العصرية ! ·· صـوت يقول بمنتهى الجلافة (فيه حاجة غلط !) ··

نظر اليها ·· وجدها تلعق الآيس كريم فى بساطة الأطفال ·· قال لها فجأة كأنما يود أن يعكر صفوها وينسف هدوء روحها !

ـ كم ظلت خطوبتكما ؟

قالت بهدوء وبصوت حريرى : سنة واحدة فقط !

نظر الى وجهها الأبيض الصغير المحاط بشعر أسود كالليل ·

ـ أهو من العائلة ؟

ـ لا ·· كان يسكن جنبنا ·

قالتها كأنها تغنى ! . تفرس في عينيها السوداوين .

ـ هـ .. ولا شك أن معرفتك به تمتد لما قبل الخطوبة ؟

ـ نعم .. جارنا .. أنت تعرف ملاعب الصبا .. وهو ابن ناس نودهم ونعرفهم جيدا .. وهو مكافح .. من عائلة بسيطة !

كانت الردود كالمسامير .. لكنه أراد أن يقتحم صرح البساطة .

ـ لماذا انفصلتما ؟ .. عفوا للسؤال !

بأصابعها النحيلة المرصعة بالمانيكير رفعت خصلة تهدلت على الجبين .. ونظرت اليه .. تنبهت لمحاولة الغزو والكدر .

ـ أهو تحقيق ؟ .. أنسيت أننا خرجنا للنزهة ؟!

قال وهو يكظم الغيظ : اذا سمحت .. أريد أن أعرف ..

رحبت بالمضى فى الحديث فقالت بلغة محايدة : كنا على وشك الزواج وحدث أن تعرضت أسرته لكارثة مالية بالاضافة الى اصابة أمه بمرض خبيث سحب كل ما لديه من نقود .. واستدان من هنا وهناك .. وارتبك ماليا .

توقفت عن الاستمرار لتذكره : على فكرة .. أمه ماتت منذ أسبوع فقط وذهبت للعزاء عندهم .

ـ اذا سبب الانفصال .. ظروف مادية ! . مجرد ظروف مادية ! .

نظرت فى عينيه .. تجابهه : وهل تقلل من قيمة الظروف المادية ؟ . انها الطعام والسكن والأثاث والثياب وآلاف التفاصيل التى لا تنتهى !

ـ هكذا الأمر ! (مالها تتحدث كآدم سميث ؟) ٠

ردت ببرود واستمرت كأنها جراح مهر : هكذا الأمر بلا زيادة ولا نقصـــان ! النيران تلعق أعمــاقه ٠٠ المنطق يضربه بقبضة حديدية ٠٠ الصراحة الشرسة ! ٠٠ الصراحة الجهنمية ! ٠٠ الهواء ينكمش فى صدره ٠٠ تعتصره القبضة الحديدية من أحشائه ٠٠ قال كمن يستعذب العذاب !

ـ هل كنت تحبينه ؟

نظرت اليه فى تأمل ودهشة ٠٠ ثم باستنكار : ما لزوم هذا السؤال ؟

ـ من فضلك ٠٠ أجيبى بمنتهى الصراحة ! ٠

ـ لا أكرهه بالطبع ٠٠ بل أحترمه جدا ٠٠ فهو مناضل ٠٠ مثقف ٠٠ شريف ٠٠

ـ هذا لا يفيد الاجابة عن سؤالى ! ٠٠ هل كنت تحبينه ؟

فهمت مراده ٠٠ لا تتنــازل ٠٠ لا ترضيه ٠٠ قالت بصوت أخصائية اجتماعية ٠

ـ اسمعنى جيدا ٠٠ المرأة الشرقية تحب الرجل بعد الزواج ٠٠ أما قبل ذلك فلا انها عواطف بالية فى مهب الريح ٠

ـ حب رسمى ٠٠

ـ كما تشاء ٠٠ لا تهم الأسماء !

الغثيان ٠٠ لا يدرى من أين تهب الروائح الكريهة ٠٠ جلسا فى الكازينو المرصع بالزهور والأشجار والمناضد النظيفة ٠٠ سيل من الأضواء ينهمر عليهما ٠٠

مال عليها وغامة بسؤال لا يناسب المكان والزمان وقال : اذا تحسنت الأحوال وتضـــاعف دخلى ‥ فهل أطلب منك ترك وظيفتك ‥ وتصبحى ربة بيت فقط ٠

رجعت الى الوراء ‥ وتفرست فى وجهه وقالت وهى تضغط على الحروف :

ـ لا أقبل بالطبع !

ـ لماذا ‥ وهذا ما تطمع فيه أى امرأة ؟

ـ لا تطمح المرأة لما تقول ‥ وعن نفسى فالعمل يصـــقل شخصيتى ‥ ويؤكد استقلاليتى ‥ وأظننــا تكلمنــا فى هــذا الموضوع من قبل ‥ والعمل كما قلت لك مرارا وتكرارا ‥ ليس النقود ‥ انما تحقيق ذات ‥ وعطاء للناس ٠

أمسك بكفها وقال لها : كنت أحسب الناس تشتغل من أجل النقود ‥ وتربية الأطفال أفضل عمل للمرأة وللمجتمع ‥

ـ هذا جزء من الرسالة ‥ وليس كل الرسالة ‥ والبعد الاقتصادى لا يمكن تجاهله ‥ أبحث الموضوع من وجهة نظرى أنا ‥ العمل هواء أتنفســه ‥ قضــايا أعيشهــا ‥ أفكار ‥ مشاركات ‥ معارك ‥ نضال (سحبت كفها من كفه) قال لها وقد شعر بأنه يحمل السلم بالعرض : نعود ٠

خرجا من الكازينو ‥ سارا فى الشارع الطويل الممتد كجدل ممل ‥

جاءت سيارة مسرعة فوق مساحة راكدة من الماء ‥ اندفع الماء كالصواريخ فغطت الرصيف ومن عليــه بالوحل والماء النجس ‥

قال لها فى قرف : لقد توحلنا ·· وهذا جزاء حبك للتمشية ·

قـالت فى اصرار وبساطة وهدوء : سنغير ملابســنا على كل حــال ·

قال وكأنه يخاطب أعماقه السحيقة : فعلا ·· نحن فى حاجة لنغير كل شيء !

وعاد من طريق آخر ·

● الصفقة ●

الجو معبق بالبارود .. لحظات ســـكينة مراوغة .. تهدأ القذائف .. استنامت الجراح لشيء من الهدوء .. يتوق الخلق الى شيء من حياتهم الانسانية .

قال الجندي المترب الوجـــه واللحية لصديقه وزميله تحت الرصاص :

ـ كم أشتاق لرؤية أمي .. مرت شهور ولم أطمئن عليها .. تركتها ليفترسها المرض ! .. لدنيا الطوارىء التي لا تنتهي ..

ـ وماذا عن شقيقك ؟

ـ آه .. رغم انه الأكبر سنا .. فهو لا يدري بشيء ولا يعبأ لشيء ! .. له أربع زوجـات .. يدور عليهن كل ليلة .. كأنه امبراطور في العصـــور الوسطى ! ناوله زميله كأســا من الشاي الساخن .. وزفر زفرة حادة .. وقال له :

ـ وأنا أيضا .. أشتقت للأولاد .. لأهلي ـ لا سيما ابنتي

الصغيرة فاطمة ·· ارتشف جرعة من الشدى واستمر فى أشجانه : لا تدرى يا صديقى ·· كم هى جميلة ·· تضحك ·· فتضحك الدنيا ·· أرى وجهها الآن ·· بسنتين فى فمها ·· وأنا أحضنها وأقول لها هيا ·· بوسة ·· بابا ·

كان الليل يهيل على الموقع ·· ويتحول الكاكى مع الحجارة الى الرمادى الغامق ·

قال الجندى لزميله وهو يطلع الأفق ·

ـ تدرى يا رفيقى ·· حين أنزل أجازة ٢٤ ساعة ·· أشعر بمرارة ·· نعم بقدر ما أحتاج نزول الأجازة ·· بقدر مرارتى ·· الناس فى المدينة ·· فى صخب ·· ولهو المقاهى تصدح بالغناء والرواد ·· تقام حفلات الأفراح ·· التجارة على أحسن ما تكون ·· النسوان فى سباق مع الموضة ! ··

ضحك فى حشرجة واستطرد ·· تصور ·· ثمة مغنى رقيع ·· يحصل فى حفلة واحدة ·· ما تحتاجه كتيبة فى شهر !

ـ لا تغضب ·· (الحرب طولت) ·· الناس تعيش حياتها ·· وحين تنتهى الحرب نعود الى المدينة ·· نلهو ونمرح ·· ونسعى ونكد ·· هذه هى الحياة !

ـ أتظن ذلك ؟

ـ بل أحارب من أجل فاطمة ·· ومن أجل المرح والعمل والمستقبل ·

وفجأة ·· أضاءت مصابيح فى السماء تحملها طائرات معادية ·· هاجمت المستودعات فى شراسة ·· كان كل شىء فى غاية الوضوح ·· فالليل تحول الى ظهيرة !

ظل يجرى هو وزميله .. يمسكه من يده .. انبطحا أرضا .
أغمض عينيه لا شعوريا وقد دفن رأسه فى خوذته فى الرمل .. يتنفس التراب انقشع القصف .. كل مكان ملتهب بالنيران .. يستطيع رؤية كل شىء .. التفت الى زميله يهزه .. قم .. قم بنا .

لم يستجب الآخر .. حملق فيه .. وجد رأسه مفصولا عن جسده تماما ونافورة من الدم ترتجف فى مكان الرقبة ..

راح يجرى .. ويجرى .. ويجرى .. يصرخ كذئب جريح .

فاطمة .. فاطمة .. فاطمة .. فاطمة .. فاطمة .. فاطمة !

لحق به ثلاثة من الجنود .. أمسكوه .. يرتجف فى أيديهم .. حملوه الى المستشفى .. قال أحدهم : جن الرجل .

بصق فى الأرض وقال الآخر : من منا العاقل .

كلما يفيق الجندى من غيبوته .. يصرخ : فاطمة .. فاطمة .. فاطمة .

بكت الممرضة .. وصاحت : الحرب عهر !

ثم سكت الجميع على صوت أزيز الطائرات المغيرة .. تنهال القذائف الحارقة الخارقة .. بجنون .. تحرق وتخرق أى شىء .. تجرف كل شىء .. الخيام والنباتات والمواشى والأشجار .. كل شىء كل شىء !

ثم ساد صمت عميق ..

وفى مكان آخر .. فى قصر .. أبهه يجلس رجل فى غاية الأناقة .. يستحم فى العطر .. يدخن السيجار ويشاهد على شاشة التلفاز كل شىء .. رفع السماعة وقال : برافو .. ارسم لنا من هنا النوع الممتاز .. والعمولة محفوظة .. مع تحياتى .

● الهمسة الصاخبة ●

أرق . .أرق .. أرق !

يتقلب الفتى اليافع .. ثمـة عنكبوت فى حلقه .. عطش غريب كأنه ابتلع ورقة نشاف ، أو أكل جبلا من الجص ! .. اتجه الى الثلاجة لبطفىء الظمأ .. لكن الأذن تتلقف أصواتا مبهمة .. ثمة احساس مباغت .. لهاث .. لهاث .. لهاث .. صــوت يعرفه .. نعم يعرفه بكل تأكيد !

الصوت يتلون ويتلوى .. يصعد ويهبط .. يتجمد الفتى .. يرهف السمع .. الاذن تتحول الى ميناء .. ثمت موسيقى ناعمة تغلف اللهاث .. صوت خشن يخربش صوتا ناعما .. اثنان فى سباق عنيف .. فى نهاية السباق ..

لهاث .. لهاث .. لهاث .. وهمسات محمومة !!

صوت المرأة يخترق أعمق أعماقه . تصعد من داخله صورة ملاك أبيض حزين .. تتلاشى الصورة .. تعلو حشرجات عنيفة قاسية لألم بهيج .

وجد نفسه ـ فجأة ـ في وحدة قاسية ·· وحدة أقسى من عزلة المدرسة الداخلية التي يعيش فيها مع زملاء الخبث والمقت · سجن يطوقه ·· سجن رهيب ·· اكتشف ـ بطريقة تدعو للذعر ـ انه أكثر مقتا وأحد تسلطا من جلد المدير ·· ونوايا المشرف الشريرة التي تداعب نظراته الوقحة وبراءته المزيفة ! ··

بروح الفتى على أطراف أصابعه الحافية على الأرض المفروشة بالسجاد ·· يرتمي في الظلام ·· تتلقفه كوة من نار ··

اشمئزاز ·· اشمئزاز ·· اشمئزاز ·

رغبة في الغثيان ·· يلصق وجهه بزجاج النافذة ·· يرقب الليل وهو يهيل على الأشياء ·· الشوارع المراقه تسيل رمادا ·· وتلتوى فجأة تحت مصابيح شاحبة ··

يسند رأسه على الجدار ·· لا يعـرف كيف يبكى ·· ويذرف كآبته !

تنتصب الدقائق ·· تتوقف ··

ملل ·· ملل ·· ملل ·

لا أحد يحس به ·· لا أحد يشعر به ·· يقف على مشارف الرغبة الملعونة ·· تتفتح العين أكثر في الظلام ·· تتلصص ·· على أحب انسانة الى قلبه ! ··

يقفل العين اللعينة ·· يرتجف ·· يتخيل الثعبان يقفز من الظلام الى جوفه ·· يرتجف ·· يرتجف ·· يرتجف ·

يضغط الوسادة على رأسه ·· يسترجع الهمسات الشريرة للأولاد الكبار ! ·· يحاول التناوم ·· يرى وحشا ينهش نصفه

الأسفل وهو يمتدد فى حوض من النجيـل الأخضر ··· يكتم الأنفاس ··

يصرخ ·· ويصرخ ·· يطلب النجدة ! ·· نهض مذعورا ·· يختنق القلب فى دقائق ميتة ·· يخنقه الرعب ·· يعتصره الانقباض ·· راح يعض أصبعه ·· شيء يعض أعماقه ·· ينهش معدته ··

وتأمل نفسه وقد كبر ·· وتخرج فى الداخلية ثم الجامعة ·· وتصور نفسه قويا يلكم زوج أمه فى وجهه ·· يحطمه هكذا ·· هكذا ·· هكذا وراح يلكم الوسادة فى حقد ··

العرق يغمره ·· ما أجمل النوم والنسيان ·· لم لا ؟ ·· النسيان يعطبه حرية بلا حدود ·· لا داعى للخوف أو الحقد أو الحسد !

يتقلب فى سريره الذى تحول الى جهنم ·· قلبه يزداد ارتجافا وجد نفسه يصرخ بفزع ··

ــ لا ·· لا ·· دعونى وشأنى · دعونى وشأنى ··

تركت الأم زوجها ·· هرعت الى الغرفة الأخرى ·· كانما مستها الكهرباء امتدت أصابع خشنة لتسكت جهاز التسجيل ·· وتخرس موسيقى ناعمة ·· انفجر الجو الحالم !

احتضنت الأم ــ فى جزع حقيقى ــ فتاها ·· ازداد فى البكاء بصورة غير مفهومة ·· هزته برفق : ماذا ·· ماذا يا ولدى ·· لم البكاء ؟ دب فيها الحزن والخوف ·· من صورة ما ·· قد يكون الفتى توصل اليها ·· طردت الخاطر بسرعة من رأسها ·· عادت فى جزع تسأله عساها تقف على مشارف وعيه وادراكه ·· يبدو الفتى أكبر من الأمس ·

ـ ماذا يا ولدى ·· قل لأمك ·· مـاذا يحزنـك ؟ ·· لم تصرخ ؟ ·· تكلم !

ـ كابوس يا أمى ·· كابوس رهيب !

قال ذلك وهو يجفف دموعه بسرعة ·· ويتأملهـــ أكثر وأكثر ·· كأنما يراها أول مرة ·· يراها امرأة جميلة فى ريعان الشباب ·· فى قمة النضوج ·· بل هى أجمل امرأة فى العالم ·· نعم ·· أجمل امرأة فى الدنيا ·· ينبوع الحنان والحب والرحمة !

الخاطر المرعب لا يهدأ فى رأس المرأة ·· كررت سؤالها فى تردد :

ـ ماذا يزعجك بالضبط ! قل ·

تراقبه بعين خبيرة مدربة ·· تلح عليه ·· لعله يفصح عن مشاعره الدفينة ·· تمسح شعره ·· تفهم ولدها حين يتألم ·· وحين يكذب نبرة صوته تفضحه عندها ·· نظرة منه تشيع اليأس فى حناياها !

الفتى منكس الرأس ·· مسدل الشعر ·· يرتجف ·· يتألم ·

تهزه ·· تكلم ·· تكلم يا ولدى !

قال الولد فى صوت منكسر وهو يمسك بكف أمه · لا أفهم الدنيا يا أمى ·· لا أفهم العالم ·· الدنيا كابوس متكرر ·· كابوس عجيب !

وراح يتخيل الرياح السوداء وقد جاءت تحصد كل الأزهار البديعة · فكيف ينعامل مع الينبوع وقد تحول الى حفرة جافة ! ·· حفرة جافة ·

قالت الأم وقلبها مفعم بألم حقيقى ·· اطفأ كل نشوة فى مسامها ··

ـ اننى أفهمك ·· رغم أنك لم تقل شيئا ·· ابنى الحبيب ·· غدا سوف تفهم ·· وتعرف ·· وتقدر ·· فتغفر ·· وتعيش بلا ألم !

ـ أنا أيضا أفهمك يا أمى ··

ربتت على ظهره . « المهم أن تنام الآن ·· وتنعم غدا باجازة سعيدة » واغتصبت ابتسامة ·· واستطردت : « سوف نذهب الى مكان جميل ·· فى نزهة بحرية رائعة ·· فما قولك ؟ » ·

نظر الى جسمها الرين ·· وتذكر سهما بشـــعا يخترق أعماقه ! ··

رد بسرعة غير متوقعة : لا ·· لا ·· لا أحتاج الى نزهة بحرية بحرية أو برية وصمت ·· تراجعت الأم ·· وكررت استفهامها ·

ـ ماذا عندك ؟ ·· ماذا تريد ؟

قالت الأم وهى تراقب التمرد وأرادت أن تحتويه : هل يمل الفتى أمه بهذه السرعة ؟ أم أزعجك شىء ما ؟

قال فى قسوة وهو يعض على نواجذه : لا ·· أنا أحبك · أحبك وأضـــاف فى مرارة ·· ماذا يريد فتى مثلى ·· كل شىء جميل ·· أليست عندى كل المسليـات ·· وجميع الألعـاب ·· وفيديو وتلفاز وتلفون ونقود ·

تذكرت الأم بعلها فى الغرفة الأخرى ·· فقالت لأبنها : اذن سأحضر لك كأسا من الحليب ·· تشربه ·

ـ ثم

ـ نـم

وجد فى عينيها طيبة تسحق كل أحقاده ·· لا يمكن أن يكره كل هذا الحنان المتدفق ·· لم يكرهها ·· ولن يكرهها ·· وحين يقترب منها ·· يجد متعة الحياة ·· ودفىء العالم ··· ولكن ·· هذا الطوفان الهائل من السـعادة ينحسر منذ جاء الغريب فى البيت ··· يخجل أن يلتصق بهـا ·· هبط بينهما حاجز من زجاج ·· بارد ·· بارد ·

تجرع الحليب تحت الحاح الأم ·· قبلته فى مودة ·· غزته رائحة غريبة ·· غطته بملاءة رقيقة ·· أطفأت نور الحجرة ·· وذهبت الى الرجل المنتظر فى الغرفة الأخرى ·

أما الفتى ·· فعاد ينظر الى النافذة ·· يتوقع أن يهاجمه ثعبان هائل يربض فى الظلام ·· وراح يرهف السمع الى صدره ·· حيث الصخب والجنون ·

● ليس للسعادة آجنحة ●

التهبت مشاعرها .. فهى على مشارف السعادة الحقيقية .. ألم يتقدم للزواج منها رجل تتمناه أى فتاة عصرية ؟ .. يعمل فى أرقى الوظائف المهمة فى الدولة .. عاش فى أوربا أكثر من عشر سنوات .. يجيد عدة لغات .. من بيئة راقية .. مفرطة فى التأنق .

وتم الزواج فى أفخم النوادى فى العاصمة .. ومضى شهر العسل .. وفجأة .. هبت الرياح فخلعت كل الأوراق الهزيلة من فوق الأغصان الجافة .. واكتشفت أن حماتها امرأة حديدية .. لا تترك فى القصر شاردة ولا واردة الا رصدتها ووجهتها الى ما تريد !

فى البداية .. كانت السيدة الكبيرة « حماتها » .. تصمت فى وقار .. وسرعان ما تحول الوقار الى صرامة وحدة فى الطبع .. ومرت شهور أقل عسلا ! .. واكتملت جوانب الألوان الرمادية بالروتين اليومى للحياة ! .. ثم عرفت ـ بالتدريج ـ متى يتكلم

زوجهـا من نفسـه ‥ ومتى يتكلم بكلمات أمه ‥ سيدة القصر الأولى بلا منازع !

قال لها يوما : أمي سيدة من الماضى ‥ بمعنى انها تحلم بالأولاد والأحفـاد الذين يحملون اسم الأسرة ويسـتمرون بلقب العائلة !

ضحكت المرأة من رياح القرن التاسع عشر وهى تهب على القرن العشرين وقالت :

ـ لا بأس ‥ لا بأس ‥ فكرة طيبة على كل حال !

ثم راحت تتجاهل الطلب العاجل والعجيب ! ‥ ومضى العام بعد العام ‥

واستطالت أنف الحماة ‥ وابتدأت تتحدث بصراحة : « قبل أن أموت ‥ أريد رؤية أحفـادى ‥ مفهـوم ! ‥ أنت الزوجة الوحيدة لابنى ‥ الوحيدة حتى الآن !

يرتبك الزوج ‥ طوفان من الحمى يجتاح قلب المرأة الشابة الجميلة ‥ لا تدرى ماذا تقول وأزعجتها كلمات (الوحيدة حتى الآن !) ‥ ولمست روح الغضب والتحدى !

وقبل النوم قال لهـا زوجهـا بتودد : فلنذهب الى طبيب متخصص ‥

سمعت في رنة صوته لحن أمه المفضل ! ‥ انتابتها نوبة غضب مفاجىء ‥ فراحت تكظم الغيظ ‥ فهى تعرف ما يقال عن المحقوق و ‥‥ و ‥ و ‥ وقالت وهى تدارى انفعالاتها :

ـ لنذهب الى الطبيب ‥ موافقة ‥ واذا قال انك « السبب » فهل أطلب منك الانفصـال ؟ واذا جاء « العيب » منى ‥ فهل

تطلقني ؟ ·· أم نتزوج بأخرى ·· حتى تحصل على ذرية تسد عين الشمس ؟ ·· ثم أضافت بسخرية ·· حتى تستمر الأمجاد !

كان رنين الكلمات مخيفا ·· فأول مرة تجرى على شفتيها كلمات مثل « الانفصال » و « الطلاق » ·· بدت الألفاظ غريبة ·· لا تدرى لماذا تذكرت لهجة زوجة الحارس !

عرفت المرأة الجميلة ·· أن حبيب الأمس ·· مجرد دمية فى يد أمه ·· فهل ينزل عن مستوى بصرها ؟ ··

وفى اليوم التالى ·· ذهبا الى عيادة الطبيب ·· وبعد طول ترقب ·· وعصبية واضطراب ظهرت النتيجة ·· انها السبب !! أو بلغة حماتها (العيب منها) ! · فهى عاقرا ! ·

كوجه الشمس المعلنة ·· ظهرت الكلمة ·· عاقر ·· بمجىء ليل الألم والهم والظلام تهمس ·· عاقر ·· عاقر ·· قالها الطبيب بألف صيغة مؤدبة ·· ألف معنى لا يخدش الحياء ولا يجرح الشعور ·· فاتحا لها باب الأمل ··الطب حقل خصب ·· ينبت فيه الجديد ·· كل يوم جديد ·· سيدتى ·· الله أكبر من كل شىء ·· منى ·· ومن الطب ومن هذه الآلات الصماء ·· فلا تيأسى من رحمة العلى القدير ·

وعاد الرجل والمرأة الى بيتهما ·· ذلك القصر الواسع ·· واتسعت بينهما فجوة رهيبة ! ··· ينبغى أن تكون باردة ·· ولتتذكر انها مجرد (حالة) ·· من آلاف الحالات ··

وأمسكت الحماه بالفرصة فى يدها ·· ونسيت انها امرأة ·· وبلا مواربه قالت لابنها ·· وبصوت عال :

ـ اذا كنت تحبها ·· ابق عليها ·· وتزوج غيرها ·· وليس لها حق الاعتراض ··

ثم صمتت لحظة وأضافت ·· تصرف بالعقل ·· ماذا تنوى أن تفعل ؟

ولا يدرى لماذا فقد النطق ·· انه يجد السعادة مع زوجته ·· فلماذا لا يسلم بالمكتوب ولماذا يستسلم لشروط الأم سمعها تقول له بحسم ـ تماما كما كانت تحادثه وهو فى العاشرة من العمر : لا تصمت هكذا كالمسمار ·· الدنيا استمرار ·· اسمع ! الشجرة التى لا تنبت تقطع وتلقى فى النار !

قال الرجل وقد عاد الى سن الطفولة : « أمى ·· أنا حزين ·· قليل الحظ » ·· وراح يبكى !

ولكنه فى الصباح قرر أن يفكر فيما قالت أمه · فتح عيناه على منظر غريب ·· زوجته لم تنم طول الليل ·· ظلت ساهرة بملابس الخروج ' وقالت له بأدب وانكسار :

ـ أنا ذاهبة الى بيت أبى ·· ارسل لى ورقة الطلاق فى هدوء ·· ولا تجعلنا ننسى الأيام الحلوة ·· ربما نظل أصدقاء ·· ربما !!!

تماسكت وهى تتكلم معه ·· لا تريد البكاء ·· هل تضيع الأيام والأحلام فى ضربة واحدة ! وأصبحت مطلقة ·

والعجيب فى الأمر ·· انها عرفت الحرية لأول مرة فى حياتها ! ·· ففى حياتها وهى طالبة أو زوجة ·· كان هناك دائما الآمر الناهى ! ·· وسرعان ما عرفت أن الحرية محاطة بالحراب ! ·· وجاء زمن الملل ! ·· لكنها لم تستسلم ·· حاربت الملل وجابهت

السأم .. وراحت تندمج فى العمل .. تمرنت فى مكتب هندسي .. واكتشفت طاقاتها المعطلة ..

وقال عنها الزملاء .. انها مهندسة قديرة .. وراح النجاح يأتي بالنجاح .. وراح الناس يعترفون بقدراتها .. وارتفع اسمها فى أكثر من موقع عمل ! .. ولمست أن أسرتها تحبها وتقدم لها العون .. وقالت أختها (كانت فين المواهب المدفونة ؟) .. وتجرأت بالتدريج على دنيا الكبار ..

وكلما صعد السهم الى فوق .. جاء الحب يعرض نفسه متمسحا فى دنيا المال والأعمال . ولكن همها الأول كان العمل .. وتقول لنفسها (العمل أولا .. العمل ثانيا .. العمل أخيرا) أما الحب فهو وظيفة المتعطلين الفاشلين ! .. وفى غمرة الأوراق والرسومات الهندسية والجلوس على طاولات مضاءة بالكشافات ومساطر حرف (تى) .. وجو معبق التدخين .. وعشرات فناجين القهوة .. نسيت انها امرأة جميلة ! ..
صارت ـ دون أن تدرى ـ عصبية المزاج .. تتحدث بالمسطرة

وتقمصت الى أبعد مدى شخصية « رجل الأعمال » .. والقلم والحساب :

ولكن فى هذا الصباح .. كان الجو صحوا .. تلاشت الرطوبة تماما وهى تؤثر على مزاجها .. جلسة فى حديقة واسعة .. مغطاه باللون الأخضر .. مرصعة بالورود البيضاء والحمراء والصفراء والبنفسجية .. وحولها أشجار ترتفع الى ما لا نهاية : ! رأت الأطفال يلعبون .. يمرحون .. يغنون ويرقصون !

لمس هذا المنظر أعمق أعماقها .. ارتعشت من الداخل !

ارتمت على بصرها صورة سيدة ·· ليست غريبة عليها ·· تتذكر ملامحها رويدا رويدا ·· ثمة تغير ·· ولكنها ·· هي ·· هي !! واقتربت منها السيدة ·· تتفرس فيهـــا ·· تعارفا ·· وارتمت كل منهما في أحضـــان الأخرى ·· هبت رائحة زمالة الجامعة ! ·· حب قوى راحب تقبلها بنهم ·· تعصرها ·· تريد أن تشدها الى السيرة الأولى ·· أيام المذاكرة والكد والاجتهاد ·· والأحلام ·· دنيا أكثر براءة ·· أيام الصفاء التى لا تعوض ·· قبل ان تهاجم أيام أيام الخبرة والحزن ··

راحت المرأة الأخرى تتحدث الى صديقتها ·· بعض الشعر الأبيض يتسلل الى الفودين تجاعيد ضعيفة تحت العينين ·· تشكى لها متاعب الأولاد · وانها لسوء الحظ تنجب توائم ! ··· تقول لها : عندى المريض والقوى والمهمل في واجباته المدرسية والمراهق العنيف المفتعل للمشاكل في المنزل أو خارج المنزل وهو يغازل بنات الجيران ! » ·· وراحت المرأة تلعن الزواج ·· وأضافت : « الأولاد امتصوا شـــبابى الزوج المحترم يقرأ في جريدة ويطلب فنجان قهوة ! · صدقينى أنا مجرد شغالة في البيت ·· كناسه ·· طباخة ·· غسالة ·· تصورى ! ·· توقفت عن دراساتى العليا ·· ومنذ تخرجى لم أقرأ كتابا واحدا ! ·· وكل ثقافتى مجرد عناوين سريعة فى مجلات خفيفة ·· هذا ما انحدر اليه حالى » ·

امتعضت المرأة ·· لابد أن زميلتها السابقة لا تعرف عنها أى شىء المرأة تحكى وتندفع كالمدفع الرشاش ·· لا تلاحظ هموم السامع ·· تقوم بعملية تفريغ لهمومها !

ويبدو أن صديقتها ـ آخر الأمر ـ انتبهت لتدفقها ·· سألت صاحبتها بطريقة لامسة : وأنت ·· كيف حالك ؟ · لم تحكى لى !

ـ الحمد لله ·· كل شيء على ما يرام ·· الصحة والمال والعمل ·

ـ لم تحدثيني عن ظروفك العائلية ؟

اشتعل الفؤاد ·· ارتفعت السخونة بين الأذنين ·· أجابت باختصار يلوى جميع الآلام الى الداخل : تزوجت ·· وطلقت لعدم الانجاب ·· وأعيش مع العمل وللعمل ··

شعرت المرأة الأخرى بالخجل ·· وشعرت باحساس من انزلق فى قشرة موز على قارعة الطريق ! ·· عقبت بكلام محايد : الحياة لا تريح أحدا ··

وتنهدت وهي تشعر بسعادة خفية ·· وأضافت : أجل يا صديقتى ·· الدنيا مشكلة لكل من يمشى على الأرض ·· ثم شعرت بسخافة كلماتها ·· وانها تقوم بالعزاء دون داع وبلا قصد نظرت فى ساعة معصمها ·· وأردفت : عندى مشاغل ·· بعد اذنك ·· فالأولاد يستحلوننى ·· أتمنى أن أراك قريبا أو أسمع صوتك فى التليفون مع السلامة ! ·· وانطلقت بعيدا ومعها بعض الصغار !

عادت المرأة الى وحدتها ·· فطنت أن فى الجو رائحة خبيثة ·· آه · انها تجلس بالقرب من مبولة الحديقة ! ··· فنهضت لتمشى ·· حلقت بعض العصافير فوق رأسها ·· نظرت الى الأفق الأزرق ·· وعادت تحملق فى العصافير الرشيقة ·· وتمنت من أعماقها ·· أن تنضم لفصيلة الطيور ·· كى تحلق الى البعيد ·

● زوجي والظلال ●

هل كان يمكن التفكير ٠٠ مجرد التفكير ٠٠ في الشجار مع زوجي ؟! ٠٠ صديقاتي ـ على وجه الخصـوص ـ لن يصدقن ذلك الحديث ! ٠٠ لأنه ـ في نظرهن ـ كاتب العشق والحنين !

انه يتعامل مع الجميع ـ والحق يقال ـ باحترام وتوازن ! ٠ لم يخطيء مع واحـدة ممن أعرفهن بكلمـة أو نظرة أو سلوك ! ٠٠ وهذا ما يزعجني أيضا ! والمصيبة أنني أتأمل ـ دون وعي حقيقي ـ السبب الأساسي للألم الذي أعيشه ٠٠ هل أواجه نفسي بصراحـة وأقول الغيرة ؟ ٠٠ لا ٠٠ ولكن لم لا ؟ ٠٠ ما سبب الجفوة بيننا ؟ وما سبب الفجوة التي تتسع كل يوم ؟

طال غيابه عني بعد أن ترك البيت ولم يقل لي أين ذهب ٠٠ أتأمل تراثه ٠٠ مكتبته الثرية ٠٠ أقلامه العديدة ٠٠ دفـاتره ٠٠ أوراقه المختلفة الأشكال ٠٠ مكتبه العريض ٠٠ مصباحه المنحني ٠٠ ملاحظاته وهوامشه ٠٠ آلته الكاتبة ٠٠ ذلك مرتع تنهداته !

كل الأشياء تشتاق اليه مثلي ! ٠٠ وبصراحة مطلقة ـ وينبغي ان أقولها دون تردد ـ أنني أحبه ! ٠٠

الأفق المترامى ·· تعلوه سحابة كثيفة ·· مثل كآبتى ·· ما هذا الجفاف فى حلقى ! كان الشجار ينبت فى بضع كلمات ·· يعتبرهـا هو استجوابا ·· أين كـنت ؟ مع من قضيت الوقت ؟ لماذا تأخرت ؟ ·· وهى أسئلة من حق أى زوجة أن تسألها ·· ولكن لماذا يتحول الأمر – بسرعة – الى الحدة والعصبية ! ··

ما أحلى الرجوع الى الماضى الآمن ! ··

كنت أعرفه قبل « الخطوبة » بمسافة بعيدة ، عصبى المزاج ، عنيدا ! · وقبلت به لطيبة قلبه ·· لكن هناك فرق بين أن يعرف المرء انسانا ، ويعيش ويكابد معه رحلة المصير ! لماذا يبتعد عنى فترا تطويلة ، هـل لانه يشتغـل بالفكر ويحتـاج أعلى درجـات التركيز ! ·· ربما ! فلاشك أن مهنته تحتاج الدقة ·

تمر الدقائق ساعات ·· المكان يتسع على ·· الشقة الضعيفة تتسع وتتباعد ·· كنت كل يوم أقوم بنفسى بتنظيفهـا ·· وأجد عنكبوتا ينسج نفسه تحت أحد الكراسى !

أتذكر التفاصيل ·· تأخر فى احدى الأمسيات ·· دبت فى قلبى الظنون ·· حسبته فى سهرة مع أحد الأصدقاء ·· أو لعله فى ندوة خاصة من ندواته المغلقة مع ندمـائه وكثيرا ·· كثيرا ما كان ينسى كل شىء فى غمرة حماسـة ونقاشه ! ·· فيسرقه الوقت · فينسانى مهملة وحيدة بين جدران صماء والحقيقة انه دعانى للذهاب معه عدة مرات لكنى رفضت ··

ولكن لماذا دب الشك فى نفسى فى تلك الليلة ؟ وقلت لنفسى · لماذا لا يكون مع فلانه أو علانه ! ·· واسقط فى يدى حين رن الهاتف وعلمت من المخابرة ان بعض خصومه دفع بمجرم لضربه بآلة حادة على رأسه ·· وان زوجى الحبيب نجا من الموت باعجوبة !

ذهبت اليه فى المستشفى ·· وكم شعرت أن الدنيا غاصت فى ظلام عميق ! كيف نسيت توتره الدائم·· وتجواله وراء الأفكار· وكم خشيت عليه من غربته واغترابه ·· تماما ·· كما تخاف الأم وليدها وهو على مشارف الجنون !

كان يؤكد لى انه لا يجتر تجاربة ولا يكتبها حرفيا ·· وربما يعمل ضد ذاته ·· كان يقول لى ، أنه يعاكس رغبة التقولب !

وينهض أمامى سؤال بحجم الفصول الأربعة : من أين يأتى بكل هذه الخيالات والأكاذيب عن الحب ؟ ·· هل أقنع نفسى أن كل تصور من تصورات رواياته ·· محض خيال ! ·· كم أشك فى ذلك والا فانتى كقارئه لن أمد يدى لاى رواية من رواياته ·· وربما أقبل — كحل وسط — بفكرة مزج الواقع بالخيال — ولكن هذا الجزء من الواقع ألا ينبغى أن أعرفه كله ؟ بمعنى أمتلكه ! ···

انه يصف قلوب النساء بحس عجيب ! مدهش ! ·· يتوغل فى شفافية ، ورهافة ، ودقة متناهية ، انه يصل الى أعماق المرأة ·· لا أعرف كيف تسنى له كل ذلك ! ·· لابد له من زاد كبير ! ··

وظل السؤال ينقر فى رأسى ، هل فى حياته — قبل اقترانى به أو بعد ذلك — جانب خفى ؟ ·· أكيد لديه مساحة غامضة ·· هل أدعى أننى تجولت فى كل حقوله العاطفية ؟

ها هو الأرق يستبد بى ·· يجعلنى هذا الرجل أتلفت حولى باستمرار ·· واصبحت خواطرى — أيضا — متلفتة ! كأنه يسخر منى ! ·· ويتهمنى بالغيرة من بعض الأوراق · بل من نقطة حبر !·· من ظلال هامشية !

وفى بعض الأحيان يدفعنى للسؤال ·· هل تغير ؟ ·· أيحبنى مثلما كان ؟ أمازلت أحبه منذ عرفته لأول مرة !

الدروب مشغولة بالسابلة ٠٠ وصوت أغنية حزينة يصل الى أذنى ٠٠ نعم أحبه ٠ لازلت أحبه ٠٠ وكيف انقلب على حلمى ! ٠٠ هل أستدير حول نفسى نصف دائرة ٠٠ بين عشية وضحاها ! أهذا ممكن ؟ أهذا معقول ! يشتد بى الألم ٠٠ وتنطوى نفسى على موجات من النار ! ما السبب ! ربما روايته الأخيرة ، التى تحمل ملامح أكثر من صديقة لى ! ٠٠ أظن بطلتها على علاقة وطيدة به ٠٠ أعرفهـا ، تلك الأفعى !

آه ٠٠الظن بمن نحب عـذاب ٠٠ ولكن ماذا أعمـل للقلب المجنون ٠٠ أتذكر ٠٠ حين قلت له مرة : شخوصك تطـاردنى ٠٠ صرت لا أفرق بين الحلم والواقع ٠٠ لقد ضاعت المسافة بين الخيال واليقين ! ٠٠ بين الظل والحقيقة الصلبة !

فكان يرد بسخريته المعهودة : اعتقلهن ٠٠ وربما أقتلهن ٠٠

وحين تجرأت عليه ٠٠ وتجهمت فى وجهه قال لى فى بساطته المثيرة ٠

ـ أنت فى حاجة الى راحة ٠٠

ـ ماذا تقصد ؟

ـ اعنى أجازة منى ٠٠ وراحة من شخوصى ٠٠

ـ أتعنى

ولم أستطيع اكمال الجملة فرد وهو يكظم غيظه : « كل عمل يحتاج فترة راحة ٠٠ وكل عامل يحتاج هذه الفترة لتنظيم ذهنه حتى يستمر فى المقدرة والجدارة ٠٠ ولهذا أقول نحن فى حاجة ماسة للراحـة ٠٠ وربما عطلة طويلـة ! » ٠٠ سكت ! ٠٠ وشعرت أن كرامتى اغتيلت على يد هذا المعطوف ! ٠٠ المتقمص لدور الحكيم ! ٠

لـكن هـذا الموقف وغيره جعلني أعتقـد أنه حديدي الأرادة عكس ما يتصور البعض ·· انه عنيد الى أقصى حد ! وحين لمح الهم يغزو ملامحي ·· قال مشفقا على ·· ليبرر مقولته :

لا بأس ·· أصحاب الورش لهم عطلة ، كل عمال العالم ·· لهم راحة سنوية وأسبوعية ··والزواج أيضا ـ كشركة بين أثنين ـ يحتاج الى عطلة ·· أسبوع كل سنة ·· انه مؤسسة هامة نستحق لصـيانة ·

ثم ادار ظهره ·· وراح يرتب حقيبتة وذهب · كانت عيناى تتبعانه ·· ترك خلفه فراغـا ساحقـا ·· فهل ذهب الى فنـدق ؟ أم سافر الى مدينـة أخرى ·· أيكون قد ذهب الى الأسكندرية ·· مدينته المفضلة ·· لا أدرى ·· لم يقل شيئا ·· لمحته يأخذ بعض أصدقائـه ـ من فـوق الرف ·· هنرى ميللر ـ دوسنويفسكى ـ كزانتزاكيس ـ بارون ـ شو ـ وحزمة من الأوراق البيضاء ·· وقبل أن يغـادر المكان أطـل على وترك لى أوراقـا نقدية تكفى لمدة طويلة لو أنفقت باعتدال · لكنه نسى ماكينة الحلاقة والشبشب ·· ونسى صورتى الصغيرة فوق مكتبه ·· ونسى أن يقبلنى ويقول باى ·· هل أصبحت مقيته الى هذا الحد ؟! ·

دق جرس الهاتف كانت أمى على الطرف الأخر ·

ـ آلو كيف حالك يا ابنتى

ـ الحمد لله كل شى على ما يرام

تسألنى عن زوجى ! · لابد من الكذب : انه فى عمل خارج البيت هل لاحظت انفعالاتى ·· تسألنى : ما بك ؟ ·· أهناك شىء ؟

ـ كلا ·· كنت ساهرة أمس ·· لم أشبع من النوم

سألتها عن صحة بابا ‥ قالت : أبوك متعب قليلا ‥ ملازم للفراش بأمر الطبيب ‥ لا ‥ لاتنزعجي ‥ انها انفلونزا ‥ وهو يتعاطى الدواء ‥ ويتجرع شراب الليمون ‥ لاتخافى عليه ‥ سوف يتعافى ليمارس سادتيه من جديد !

ـ سوف آتى لرؤيته

ـ أهلابك ‥ بلغى التحية لزوجك العزيز !

اتسع البيت فجأة ‥ وتوحش المكان ‥ الهاتف يؤنس المكان حين يرن ! وكنت قبل ذلك أنزعج منه ! ‥

الغسق ينتشر برماديته الخابية على الأشياء ‥ وبدأت الشوارع المراقة تحت النافذة فى الشحوب ٠

أتذكر زوجي وهو يقول لى : المفكر يحتاج بعض العزلة ‥ بل كانت عقيدته أن الحياة عزلة تنوعها الصحبة ‥

الرياح تضرب هامات الأشجار فتدوخ الأغصان المرهفة تحت لطماتها ‥ دقائق مرت على مكالمة أمى ! ‥ العزلة قاسية ‥ مدمرة ‥ تلك العزلة التى يبحث عنها بعض الناس ‥ الا يعرفون انهم فى الطريق الى عزلة أبدية !

العزلة تزحف على قلبى ‥ هل أتصل باحدى صديقاتى واحكى لها كآبتى ‥ ربما أشعر بالراحة ‥ اننى أتردد كثيرا فى كشف خلافاتى مع زوجى ‥ هل أقول لهم بصريح العبارة اننى أغار من بضعة سطور !

الفراغ يغزو كل شيء ‥ يحاصر كل شيء ‥ يبتلع أى هم انسانى ‥ ويتعمق وحشا ضاريا ‥ فتحت التلفاز ‥ النشرة الاخبارية المصورة ‥ تظاهرات نسائية ، اضطرابات فى بولندا ‥

حرائق في بلفاست ·· مذابح في لبنان ·· كارثة فضائية مروعة ·· ثم يهيل الملل ·· الملل ·· الملل !

رحت أهرب الي المطبخ ·· أصنع لنفسي فنجانا من القهوة ·· وعدت استمع لبرنامج موسيقى في الراديو ! العين تتجول في المكان ·· كأنني أراه لأول مرة ·· كل شيء يذكرني به ·· دخان سجائره لم يرحل بعد ·· فوضى مكتبته ·· أوراقه المشاغبة المجلات تتعارك فوق الطاولة ·· وأنا أحملق في الأشياء ·· عقلي كسطل منقوب يتسرب منه الماء ·· يتسرب مني وعيي !

الأشياء غير متعاطفة معي ·· بل تخرج لسانها وتتحداني ·· يزداد الانفعال تصعيد الى حلقي مرارة ·· الزئبق يرتفع في موجة عالية ·· زئبق في عيني وعقلي موجة ثقيلة من الهم راحت تغمرني· رحت أتصفح بعض كتبه ومقالاته كأنني مازوكية تتسلى بتعذيب نفسها ·

انه يتوغل في وصف امرأة يعرفها ·· نعم أعرفها أنا أيضا·· يزحف على جسمها بكل حواسه الخمس أو العشر لينقض عليها فينقل نفريقة الثدى ·· ورائحة الابط ·· وليونة البطن·· صفحة الكتاب تتحول الى بشرة ناعمة ·· الكلمات ترسم العيون الفاجرة ·· وتطل على عيني ·· تحدق في ·· تلعق خدى وشفتي وتصدم أناملي وتهيج مشاعرى ·· ما هذا الوخز العجيب ·· ما هذا التوقيع المرير !

الريح تعوى في الخارج ·· تزوبع بين البيوت ·· وخواطرى تزوبع في عقلي وثمة سؤال يسيوط فؤادى ·· أين ذهب طفلي الحبيب ؟ · كم أنا نادمة لمشاجرته !

انسكبت القهوة الساخنة على فستاني الأبيض ·· أذهب الى الحمام لازيل البقعة وأغير الفستان ·· هل أنا متوترة الى هذا

الحد ·· وعـدت الى مسودة الكتاب ·· من أين يأتى زوجى بهذه التصـورات ؟ ·· ان في قـدرته تصـور العـواطف الجياشة على الورق ! ·· انه رجل الأوراق بلا منازع ·· يجد سعادة غامرة فى اقتناء كتاب جديد أو الذهاب الى المكتبات ·

ظللت أقرأ ·· وصفه للعالم الوردى ·· ورعشات الشباب ·· وما أكثر ما يلجأ الى الاثارة الرفيعة ·· كنت أحسبه قد نسى الحب· لانه كان يضاجع الأوراق والأحبار ·· وينسى كل شىء ·· ينسى أن له زوجة تعيش على بعد ذراع تتنهد تحت سقفه ·· كنت أشتاق اليه ·· اشتياق الحبيبة الى حبيبها ·· وأحضر نفسى ·· المكياج والحرير المعطر ·· لكن الأوراق تمسكه عنى ·· يكبلـه القلم ·· تحاصرة الكلمات ·· فأجلس بالساعات كقطة أليفة الى جوار مكتبه· وأجده يلتفت الى ·· ويبتسم ابتسامـة لا معنى لها ·· ابتسامـة (رابوط) مشغول حتى أذنيـه ·· ثم يطلب قهوتـه ! وأحيانـا يتذكرنى كامرأة ·· وليس كظل ·· فيمتدح تصفيفه شعرى ! ··

كنت أعتبر تصرفاته اهانة لأنوثتى ·· والغريب كل الغرابة أن أجد كتاباته مغرقة حتى العظم فى عالم الحب ·· أيعنى ذلك انه يحب على الورق فقط ؟ ·· أهو حب منافق جبان لا ينجب الا الوهم· وأقول بلا مواربة كدت أمقت دنيا الروايات والأشعار من أجل الايغال فى الوهم ·· وتقديس الأدباء لاوهامهم ·· بل تقديس ذواتهـم الضيقة الحقيرة !

وحين مرة سألته ــ وكثيرا ما أفعـل ـ عن معنى الحب ·· ولماذا لا يصوره كما يحدث فى واقعنا ·· لماذا الرومانسية وتصوير الأشجار البعيدة فى يوم صافى ·· قال لى انه لا يصور الواقع ·· بل يشتحب منه ، لأن الأدب ليس صورة طبق الأصل من الواقع ! · بل فوق الواقع وأجمـل واكمـل منه ! · وحين سألته عن أفكاره

الغريبة التى يتكلم بها أبطاله قال : أعتقد أن كل شخصية لها مطلق الحرية فى الخروج بنفسها وكيانهـا ضمن العمل ·· وانه ضـد الكتابة الحرفية ·· أو التى تنهض على الوعظ والارشاد ·· الأدب شىء آخر !

البيت هادىء تماما ·· يغرينى بالأنتحار ! · يبدو أن المشكلة كما تحددها أمى وهى عدم انجابنا الأطفال · انها ترى ذلك كارثة حقيقية على تكوين الأسرة ! وعمل متعمد ضد الطبيعة ·· ولكنى لم آخذ برأى أمى ·· وليس الطفل وحده هو الرباط المتين بين الزوجين! فكم من بيوت عامرة بالأطفـال دب فيها الخـلاف والشقاق ! كثيرا ما تساءلت نفسى لماذا جاء البرود بيننا ؟ ان نظرة واحدة منى الى من فى الكازينـو أو النـادى ·· تجعلنى أفهم العلاقـة بين أثنين ·· فالصمت هو العمود الفقرى على مائدة المتزوجين ·· فالزوج يقـرأ فى جريدة أو يطالع خاسة (الأخريات) ·· أما الزوجة فمتعلقـة بالصغار ·· تخشى أن يضيعوا ·· واذا نبت حوار ·· فاننى أشم منه على الفور رائحة الثوم والبصل أو هموم الأسرة ! ·· ولكنـى قلت أننا نختلف ·· فزوجى كاتب فنان ·· وان آوار الحب لن تخمد ··

البرودة الآن تسرى فى جسدى ·· النوافذ مفتوحة على الفراغ فى الأفق الرمادى المترامى ··

يبـدو أنه علمنى العزله ·· فانـا أرفض الاستمرار فى شلة النادى··وحين ذهبت معه فى « الأتيليه » الخاص بالكتاب والفنانين· كانوا مجموعة ظريفـه ·· لكن شد بصرى الى حسناء فرنسيه ·· متميزة بلونها وجلستها ولكنها بين الأخريات ·· ورأيتهـا تهمس فى أذن زوجى ·· فاشتعلت النار فى جوفى ·· رحت أرقبهـا فى هدوء ·· أسنانها المنتظمة البيضاء ·· بشرتها الحمراء ·· شبابها

المتوقد بالذكاء ·· نجيد النكتة ! ·· ترتدى فستانا ربيعى الألوان ·· وراح السؤال الخبيث ينسحب الى عقلى ·· أثمه علاقة بينهما ؟ ·· لماذا تهمس له ! ·· وبماذا تهمس ·· هل هناك سيدة محترمة توشوش لرجل فى حضرة زوجته ! ·· هذا استهتار بى كامرأة وكزوجة ! تماسكت ·· حتى أبعد الفكر عن بيتنا ·· وسرعان ما فنمنى زوجى لهم ·· وصححت فكرتى فورا عن المرأة الطيبة ·· وشعرت بتفاهة الغيرة ·· بل رحبت بهم فى بيتى وبدعوة منى ·· وكانت سهرة ممتعة ·· ولكن كلمات أمى كالمطارق فى أذنى (الأمان للرجال ·· كالماء فى الغربال) ··

الفراغ ·· الملل ·· الصمت جديلة تلتف حول رقبتى ، رحت أكافح الهبوط ·وقلبت فى أوراقه ، وجدته قد انتهى من كتابه « شخصيات أدبية » · شدتنى مقالته عن « جين أوستن » ·· كصفها باسلوب عذب ، يرسمها فى عشق واشتعال ، كانه كان يعرفها عن قرب ، وجدتنى أسخر من نفسى · هل كان على علاقة بها ! بالسخافتى ! ·· لم أرفع عينى عن السطور · يصف عالم « جين » ومعاناتها وكيف ان معرفتها بالناس محدودة لاتزيد عن ثلاث أو أربع أسر فى ريف صغير محدود ·

وراح يفسر كيف تجاوزت « جين » عالمها الى العالم الكبير ، يتكلم عن الصدق . وعلق فى نهاية المقال الرشيق (ان كل ما يحتاجه الاديب ، العين الواعية والاذن المرهفة والذكاء وحب الناس وعشق الأدب نفسه) واشتعلت روحى بالحماس ، فجلست الى الآلة الكاتبة ورحت أضرب عليها . ونسيت فى لحظة اننى سكرتيرة مخلصة · و·· ما كان اجدر بى لوتخليت عن مضايقته ·· يكفى ما يضحى به من صحته وتضييع أسمى لحظاته فى تأملات ، لو بذل نصف مقدارها فى تجارة لاصبح صاحب ملايين ·

أتذكره قال لى مرة «الأمل فى فيلا أنيقة على البحر ، أو امتلاك ناطحة سحاب ، أشياء جديرة بالخياطين وتجار الخردة ، والسماسرة من كل لون » . طحننى الارهاق ، توقفت عن الكتابة ، خرجت الى الشرفة ، لسنى البرد ، فنمت قليلا ، دق جرس الهاتف: آلو .

انه زوجى ، فرحت .. ورقص قلبى .. قال لى فى برود : هل ينقصك شيء . قلت اكظم غيظى : ينقصنى كل شيء .. تعال فورا . لن احاسبك أين كنت ؟ .. رد فى هدوء : ماذا حدث ؟

قلت له مجدة : لص قفز الى الشقة ، جاء يسرق سعادتى ، تعال الحقنى .. عيا .. لا تتأخر كعادتك .

● شجرة فى الخريف ●

السماء من الفضه الصافية ـ والشمس ذهبية ‥ عادة ‥ لكن الكآبة فى نفس الرجل أشد ‥ فها هو يلتفت الى الطبيعة من حوله ‥ يجابهه صمت عجيب ‥ لا يمكنه التحاور مع الأشياء ٠

كان لابد له من الهروب الى ما وراء البحار ‥ قبل هطول الخريف وتجريد عمره ورقة ورقة مع التقويم المعلق على الجدران ‥ كان ذلك ـ فيما يظن ـ مكسبه الوعيد ‥ رحل عن الجفاف ثم عاد اليه ومع حفنة مـال ‥ أنطفأ بريق العين ردمها المـال ‥ وحيق النفس صعقته شهقة الماس ‥ ومن سبى المال الى السبى الأبدى بين الغربه والوطن والناس ٠

هل جاء ليعيش هنا ؟ لماذا لا يصارح نفسه ويقول (ليموت هنا) ‥ أنه مثل الأفيال ‥ يعرف مقبرته ‥ ويستشعر النهاية ‥ بعد ما زحف الوهن وتنملت الأطراف ‥ وركدت الهمـة ‥ وفقد الرغبة فى الانطلاق والحركة ٠

العرق يطفح من جلده المكرمش ٠٠ وجهه الملىء بالتجاعيد كثمرة عنب عفا عليها الزمن ٠٠ ولكن بقى فيها طعم السحر والسكر ٠

ثمة فشجرة في الخارج تحت الشمس ٠٠ وغبار ينتشر فى الشوارع ٠٠ يمكن أن يضغط على جرس فيأتى من يقفل النوافذ ٠٠ لكنه يخاف العزلة فى هذه المرحلة ٠ يتنهد الرجل ٠٠ أين الأصدقاء ؟ سمع بموت أحدهم في شقته ٠٠ مات وحيدا وظل لمدة أسبوع ٠٠ حتى أعلنت رائحة العفونة عنه ٠٠ ولكن لن يحدث له مثل هذا ٠٠ لماذا ؟ يؤكد الرجل لنفسه « أنه المال ٠٠ أجل المال الذى يجعل ممرضتى تتحمل رائحة البول فى الملابس ٠٠ ويجعل امرأة أخرى تغسل ثيابى المليئة بالغائط ٠ المال يجعلهم يتذكروننى فى هذا المكان ٠٠ وظهر لى أقارب كنت نسيتهم ٠٠ لكنهم يتذكروننى ٠ أهلا بالورود الى ينتظرون وضعها على قبرى ٠ يشغلهم الميراث ٠ والنهب القانونى ٠ فاى معنى للحياة ؟ »

لا يدرى كيف ينهض ويقابل الناس ٠ ولماذا ينهض وأين هم الناس ؟ البواب وزوجته والخادمة الممرضة ٠٠ الطبيب ليسوا بشرا ٠٠ ليسو من الناس انهم وظائف مختلفة ٠

راح يتمغط ٠ آدم رهيبه فى الظهر ٠٠ لا يستطيع تحريك القدم ٠ أين صورة الشاب ٠٠ الفتوة الشارب الذى يقف عليه الصقر ٠٠ الرياضة العنيفة ٠٠ رحلات الصيد فى أحراش أفريقيا ٠٠ التزحلق فى ثلوج أوربا ٠٠ ملامسة عشرات النساء الجميلات ٠٠ هل يتذكر تلك العيون الخضراء ٠٠ والأنداء المليئة المستديرة ؟

أيام الخرافات ذهبت مع الزمن الجميل ٠٠ مع عصر الماموث ٠٠ والمجهول ٠

ثمة شجرة فى الخارج تلطمها الريـاح ·· تئن ·· يسمع الأوراق تتساقط فى خشوع واستسلام ·· الذباب يحوم حوله · يغرك شـعره الملىء بالشيب ·· « يقولون الذباب يدل على وجـوه الموتى أمعقول هذا الكلام ؟

تأتى امرأة حسنة المظهر ·· رشيقة ·· صغيرة الجسم ·· نشيطة ·· قوية ·· تعمل فى اصدار وهدوء وصبر ·· والعجيب أنه يطالعهـا فى صمت ويراقب انفعالاتهـا ·· لاشىء ·· انه نار انطفـأت منذ زمن ·· يتعجب منها لانهالم تشمئز منـه » ها ·· لا أحد يخدمه بلا مقابل ··النقود ·· النقود ·· ومن الغبـاء أن يبحث عن العطف الانسانى ·· أو ما يسمونـه الحب ·· وتذكر الفلاحة المخلصة التى أثناء زيارته للريف ·· وكيف كانت تتحمل نزواته وقلة أدبه ·· كانت صبورة كالجمل ·· وأتة مرة مع امرأة جميلة ·· قال لها عنهـا : انها صديقـة ·· مجرد صديقـة ·· وصدقته ·· كان صبرها قويا ·· وهذا ما جعله يحـاول الفـرار صرخ فيها : امرأة جميلة أليس كذلك ؟

ردت بصوت هادىء : نعم جميلة جدا ·· وماذا فى ذلك ·

– لا شىء ·· لا شىء · انها لا تفرق بين امرأة جميلة وبين جزع شجرة ·

لايطيق الذى لا حد ·· ولا يقبلـه من أحد · كم كان يتمنى ان تصرخ فى وجهه ·· أن تحافظ عليه ·· حتى المال ·· لم تكن تطلبه ·· كانت هادئه لدرجة الموت ··

وبيتها هادىء ·· ساكن ·· يغريك بالانتحار ··

سألها مرة ·· هل تحبيننى ؟ · هه ·· قولى انطقى ·· هل تحبيننى ؟ سكتت ·· ونكست رأسـها فجـأة ·· صرخ فيها :

أتخجلين من زوجك ؟ من أى العصور أنت ؟ ·· وحين هزت رأسها بالايجاب ·· جاء متأخرا ·· لم يعجبه هذا الانطفاء ·· انه سمع من حسناء غزلا صارخا ·· كان ذلك فى بلاد الثلج والضباب ·· لم يكن أشقر الشعر ، ولا بعيون بنفسجيه ·· يتذكر أناملها الرقيقه وهى تمسح الثلج الرقيق عن كتفيه ·· تشعره ــ رغم غربته وفقره ــ أنه امبراطور ·· تلك نساء تعرف كيف تعطى ·· كيف تأخذ ·· يالله ؟ لكنه ــ والحق يقال ــ متقلب المزاج ·· فحين شاهد النساء فى سان بولى يطاردون الرجال بعدة لغات ·· أصابه الجزع ·· وصرخ كشرقى قديم « لا »هذا كثير ·· القيامة ستقوم ·· لابد أن تقوم ·· ربما قامت فعلا ·· لا حياء للنساء لا حياء للنساء ·· قربت الساعة ····

ذبابة لعينه تحط على عينيه ·· بهشها بكفه الضعيفة المعروقة ·· العرق يتسلل فى خيوط رفيعة الى عينيه ·· رفع باصابعه النحيلة الملاءة البيضاء ·· تفوح رائحة البول ·· آء ·· نتانه ·· نتانه ·· نتانه ·· يخجل من نفسه وهو يقارن بينه وبين المرأة المعطرة الجميلة فى زيها الأبيض النقى ·· يخجل وهى تطل عليه بملامحها العاديه ·· آه ·· لايبد وعليها أى قرف · « ·· تسنده ·· يلاحظ أن أظافره طويلة ·· تأتى المرأة بخرقة مبلله ·· بماء دافىء ·· تمسح له ما بين رجليه ·· توش عليه العطر ·· تأتى له بثوب أخر ·· نظيف ·· مكوى ·· » (آه ·· لو كان فى الدنيا أى عدل ·· لذبحونى على الفور ·)

سألها بحب استطلاع : كم عمرك أيتها الحسناء ؟

تطلعت الى وجه وابتسمت : ثلاثون عاما ·

ــ متزوجه ·· هه ؟

ــ ما لذى يجعلك تظن ذلك ؟

ــ اذا لم تكونى متزوجة ·· فمن المؤكد بأن الرجال أصابهم العمى ·

نكست رأسها وقالت : أرملة ·· يا سيدى

ابتلع ريقه : آسف ·· فأنت جميلة ·· صغيرة ·· كيف أصبحت أرملة ؟

ــ الموت يأتى الى الناس ·· دون التقيد بأقدمية السن ·· أو الصحة ·· آسفه ·ذعر من هول الكلمات ·· أصر أن يحول الدفة ·

أيتها الحسناء ·· ألا تشعرين بالكآبة وآنت تقومين بهذا العمل الوضيع ·· ؟ (وأشار الى جسمه هو) ·

ــ حسن ·· ولماذا أشعر بالكآبة ·· أننى أشعر بالسعادة لأن هناك من يحتاج مساعدتى ·· ولمجرد أننى نافعة فى الدنيا ·· ثم لماذا أشعر بالكآبة ·· هناك طبيب يحلل البول والبراز والدم · وثمة عمليات جراحية فى كل أماكن الجسم ليست بالمشاهد المسليه ·· بل هناك من يقضى عمره بين مواسير المجارى · (صمت قصير يسود المكان كله) ·· تستطرد المرأة : انها مهن انسانية ·· انسانية الى أقصى حد ·· أليس كذلك يا سيدى ؟

هز رأسه الأشيب ــ بحركة ميكانيكيه ــ نعم ·· وصرخ صوت فى أعماقه ــ لا ·· لاضرورة لأى شىء ·· لافائده من كل تعب الانسان ·· كل شىء يذهب الى المهملات ·· الأشياء الجميلة تسقط فى الأشياء القبيحة ·· الريح تكنس كل شىء ·· القبح ــ فى النهاية ــ يحصد كل شىء ··

منذ لحظات ·· كانت الشمس رهيبة فى السماء ·· ولكن

رائحة البول أكثر حدة . لكن الأن أكثر راحة .. ربما لقدوم المرأة .. عطرها النسائى المميز ..

ـ مازالت جيوبه الأنفيه تعمل ـ يتطلع الى وجهها الجميل الرائق ..

يراقب بسمعة كلماتها الطليقة .. نفهم الدنيا .. ولكنه يخجل أن يكون مجرد خرقه كالتى نظفه بها .

« آه لو جاءت الى فى الزمن القديم .. أيام التألق والنجومية .. حيث المال قليل .. والقلب أكثر حرارة وشوقا وشعرا .. كانت روحى تسعى فى الفضاء المرصع باللانهاية .. آه .. كانت الشهرة سحقا .. وما كان أحلى السهر حتى الفجر مع شلة الأنس .. كلنا نرقص على ظهر حوت عملاق . الكل فى مرح .. والكل للمرح .. آه .. كان القلب غرا .. زمن مر . ما عادت الألوان كالألوان .. ولا المذاق .. فأين ضاعت الموسيقى العذبة .. كيف سكتت أصابع العزف ؟ كيف تفحمت شجرة القلب العتيقة .. وكيف كان يسأل .. وهو طفل .. وهو رجل .. عن معنى الحب .. ومعنى الحياة . ويبحث عن العشق والسحر .. ولماذا ينتفض قلبه لغياب القمر .. أو يسرح عقله فى رحيل الشمس عند الغسق ؟

آه يا قلبى .. لماذا يذهب الربيع ويكنسنا الخريف .. ويعصف بناء شتاء البرد القارس .. حيث الوحدة .. حيث السأم والمساحات العارية كالفضيحة . وألف سؤال محترم .. مختوم بعلامة استفهام .. لماذا لماذا لماذا .. ؟ تتألق الأيام البعيدة المسافرة فى الماضى ..وتضيع اللحظة فى واقع مرتهن بالتفاصيل . هل يتذكر كيف تسوست أسنانه ؟ . كيف صار الانفعال النارى الى رماد . امتدت يده بحركة تلقائية الى علبة السجائر .. سارعت

يد الحسناء لسمنعه في رقة امعض اكفهر وجهه كطفل فقد دميته . ربتت على ظهره لتمنعه فى لطف وعذوبـه وقالت له : ممنوع .. آسفـه ممنوع .. ثم استدركت : من اشتراه لك ؟ فقـال بقرف الفلوس .. الفلوس تشترى كل شيء .

قالت وهى تتفهم كلمـاته : التدخين يضر بالسليم فما بالك بـالمريض ؟ .. أشار اليهـا : كفى . ليس عنـده العزم ليصرخ ويحتج .. وما كانت بمقدور انسان أن يمنعه من شيء قامت المرأة تغلق النوافذ .. فقد زاد الغبار .. هذا زمن أغبر .. أين أيام سطوته وجبروته كان يعطى الأوامر فى سعادة بالغة .. الآن عليه أن يمتثل للأوامر همس لها في ضعف : اسمحى لى بتذوق سيجارة واحدة .

تعجبت منه وقالت : كيف أمارس ما يضرك ؟

قال فى طفوله : كأنك غير موجوده .. هه .

ـ صحتك يا سيدى أهم من ألف سيجارة .

ـ صحتى ضاعت وانتهى الأمر .

همست فى صوت خفيض : الله كـريم .. الله كـريم . (شعور طارغ يجتاحه .. يريد مواصلة الحديث عن أى شيء) .. سألها : ماذا تقولين ؟

ـ أقول .. الله كريم .. فأنت أفضل من غيرك .

سرت المقارنه .. فقال لها : كيف بالله عليك ؟

قالت له : سيدى .. حالتك عادية .. الشيخوخـة مسألة عادية .. أما اذا زرت المستشفى العسكرى ورأيت الشباب المحطم فى عمر الزهور .. فماذا تقول ؟ هذا فقد ذراعه ـ وذاك فقد ساقه

.. وآخر فقد نصفه الأسفل .. وهناك من ضاعت عينه .. وعشرات .. بل مئات فقدوا عقولهم .. أصبحوا مجرد صدر .. هياكل . فقال بملل ـ لانها الحرب .. وهناك من ذهب ولم يعد .

قالت كمن يعاني من ألم دفين : هناك أطفال يصرخون من أمراض عنيفة .. لا أدرى بماذا تفسر هذا أيضا . فالالام في كل مكان .

ـ لاتفسير عندى لأى شيء ..

ـ فلنقل أنها ارادة الله .

(شيء ما يعلن الطوارىء داخله) .. انه مجرب .. يعرف اكثر مما تعرفه المرأة .. ولكن الأمر يختلف .. يمكن أن تحترق مدينة ولا تتألم .. أما أن يخلقوا لك ضرسا تبدأ المشكلة . انها حدثتني عن الحرب .. فليموتوا في الحرب .. ويعملوا عملا له قيمة . ما قيمة الموت في السرير .. ما قيمة أن يتبول رجل على نفسه ..

ياقلبي .. القلب يعمل مضخمه .. تعمل في الوقت الضائع .. الزوابع في الخارج تلق البيوت .. الحدائق ترتعش .. تتغطى بموجات التراب . ما أبشع العواصف .

قال لها : هل أطمع في قدح من القهوة ؟

ردت بلا تفكير .. لا .. القهوة ممنوعة .. يبدو انك تهفو للممنوعات . أحسن ما قيمة اللسان في الفم الملىء بالحرارة ؟ .. ما أشق البحث عن ظلال وارفه تحت أشجار جرداء . ما فائدة النقود التي يأنزرها ؟ وهو لا يملك الحق في تدخين سيجارة .. أو تناول القهوة .. أى سخرية ؟ .. يسمعها تردد في حمسة

مرفوضة : (الصحة أهم) .. طريقــة باهتة يستعملها الناس فى الكلام .. خطة سخيفة لزحف المياة الآسنة .. ما أشبع الانتقال من تعاسة الى تعاسة . « آه .. أجلس وحيــدا .. كتله سوداء تقف أمامى .. انه الخوف يزحف على روحى .. يمنعنى الشعور بالحرية .. ويضربنى بكعبه الفولاذى .. ويخنق أى فكرة نيرة » . فى يوم ما .. ظن اقامته بالمستشفى تمنحه بعض الأنس وسرعان ما اكتشف فشل التجربة .. وكم كره الملاءات البيضاء ورائحــة الأدوية . ولن ينسى قوى الممرضــه فى صوتهــا الآمر : هيــا .. سمومك .

انزعج وسألها : ماذا ؟ أى سموم ؟

ناولته المبولة البلاستيك وقالت : خذ المبولة . هيا لا تخجل .

كانت المرة الأولى التى تتعامل فيها كمريض فى مستشفى .. وحـــين أرادت المرأة مساعدتــــه صرخ : لا .. وأنت امرأة .. لا تلمسينى هكذا .. اننى أخجل منك .

كم كان يحترف وهو يتغوه بهذه الكلمــات .. أهو يعرف الخجل . هل كان كل ماضيه الا غزوا مستمرا . آلمه أكثر من أى شىء كلمات الممرضه : ماذا تقول ياسيدى أنت لست رجــلا عفوا .. لا أقصد الاهانة .. أنت هنا مجرد مريض .. حالة .. وأنا لست امرأة أنا ممرضه .. جئت هنا لأساعدك .. انس حكايــة الذكر والأنثى .. انس .. ثم انك فى عمر جدتى .

كاد يمكن .. كيف ينسى أنه رجل ؟ . كيف ينسى انهــا امرأة قال بعجز وعنـــاد هكذا الأمر حسن اذن دعينى أحـــاول وحدى ..

تركته يجرب .. ترتيك يداه .. يقول لها : لو سمحت ..

دعيني وحدي ·· تقول بصوت أبرد من الثلج · لقد حاولت ·· وفشلت ·· أرجوك ·· أسمع الكلام ·· لا تتبول على السرير ·· لاتكابر ·· دعني أساعدك ··

نفجرت أعماقه بالصخب ·· ولذا قرر أن ينتقل من المستشفى الفاخر الى سكنه العظيم ·· وينقل معه ما يشاء ·· هنا فائدة النقود لا يمكن أن تتحكم فيه امرأة ــ ولو كانت تمرضه ــ لا يمكن أن يتحول الى خرقة ·· ممسحة ·

االدموع تملأ العين ·· لا شيء يتغير ·· المكان هو هو ·· ولكن الأشكال تتغير · (لاتكابر ···لست رجلا) · هكذا سمعها فى آخر العمر ·· مثل سجين يتحول الى رقم يتحول هو الى حالة ··

(ماشاء الله ·· ليس أمامك الا العد التنازلى ــ) الطيور تمرح فى برجها العلوى ·· بينما هو سجين الفراش والأوجاع ·· لا يساوى الذبابة التى تقف على عينيه ·· (لا أدرى فيم الفكر ؟ ·· فيم الفن ·· فيم العلم ·· فيم تعب الانسان ؟ هل كتب على الجلوس بجوار النافذة ·· أطالع فى المسافات البعيدة ·· أحلم ·) تحولت الأن الى مرآة ·· يسمع الخادمه تغنى وتمرح ·· وتملىء جسمها البض باطيب الطعام من مطبخه · وزوجة البواب تنتعش بحمام ساخن وتجدل ضفائرها فى نشوة ·· أطفال البواب يلعبون فى حديقته ·· أين هو من هذا الهاموش ؟

لو ارتفع بطائرة الى بعيد لتجسيدت مأساته ·· انهم مجرد ديدان ·· فلم المكابره ؟ وكأن المرأة الحسناء تقرأ ما يجوله بخاطره ·· تقول له وهى تجر زراعه لايرة فى العضل : لاداعى للتفكير الغير مجدى ·· لاضرورة للانفعال المجانى ·

يتطلع اليها في مرارة ·· لايحس بوخز الابرة تهاجمه وصايا الأطباء العتيقة · وصايا تجلب الصدأ على صدره ··

يتنهد في عذاب مرير « السعادة حشرجة ·· مجرد حشرجة ·· كنا نضحك فيما مضى على النكات البذئية ·· لماذا تستهوينا البذاءات ؟ ·· كنا دائما على مشارف الانتفاخ الكاذب والعفن والنسيان ·· والغريب أن العين لاتشبع من الألوان في الليل المرصع بالأضواء ·· الاعلانات ·· أضواء كاذبة لبهجة ·· عابرة مثل أعمدة الوهم في مرفأ بعيد ·· حتى ليالى الدفء كانت مسربله بالكذب ·· الألسنة تكذب ·· والعيون ·· »

كيف نقاوم الضباب الحار والهواء الملغوم بالنوايا الشريرة ؟ ·· وننسى النعاس ·· وتمتزج كلماتنا وزكامنا وضحكاتنا في قبلات منسية ·

(ويح قلبى ·· لماذا يتعلق بالقلاع العتيقة ؟ ·· كم يستبد القبح بالبنايات الجديدة ·· الشامخة في غرور ·· في معدن فقدت الذاكرة ·) ·

سمع المرأة تقول بعد أن نظفت مكان الأبرة ·

ــ سوف أمشى الآن ·· من فضلك خذ الدواء في مواعيده ·· حتى أعود ·· فلدى مشوار هام ·· لو سمحت ·· انها مسألة هامه ·

تمتم الرجل : مع السلامه ·

قالت له : هل من خدمة يمكن أن أوديها لك قبل خروجي من عندك ؟

ــ أتستتطيعين ذلك ؟ ··

ـ بذل سرور ·

قال من برود : هناك خزانة ·· أمامك ·· غدارة ·· أعطني أياها صاحت فى فزع : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ·· عد الى أيمانك يا سيدى الله فى عونك ·· ومسحت على رأسه فى حنان ·· ثم خرجت ·

يمنع نفسه من البكاء ·· كثر الضباب فى عيون الرجل ·· ما عاد يشعر بالمدينة الفلكية التى لا تهدأ ·· له ليل ممتد ·· ونهار يتمطى فى حضن الملل ·· لا يحب العطف من أحد ·· ولا التظاهر بالشفقة من ديدان ·

يكره الحيوانات الناقصة التكوين ·· العاجزة ·· يتمنى أن ينام ·· ينام ولا يرى بقية الشجرة ينهشها الخريف ·· سمع صوت فى الخارج ·· الباب الخارجى يقفل باحكام ·· ويهيل الصمت على المكان ·

• المكالمة القاتلة •

الحر يلف المكان برائحة غير مقبولة ·· الغبار يغبش السماء ، ويجعل التنفس صعبا ·· صوت أقدام المشاة ·· يخف من الطريق ·

ثمة شخص يرقد فى سرير ، تحتويه غرفة أنيقة ·· تحتويها فيلا جميلة ·· يحتويها حى راقى يدل على مستوى الطبقة الراقية ·

كان الرجل ، نحيل الجسم ، أسود الشعر ·· دقيق الملامح ·· فى مقتبل العمر ·· لكن هذه الوسامة يحتويها المرض اللعين ·· والأمل فى الشفاء ترياق بعيد المدى ·

الوقت أطول من أى وقت مضى ·· لم تعد الساعة ساعة ! وكم تمر الأيام كئيبة وكم تعتمل فى صدره الشجون ·· فيلجأ الى أقصى الشرق ويعود الى أقصى الغرب فى لحظة ! يمد يده الى علبة السجائر ·· يشعل الدخينة ·· الذكريات أيضا دخان ·· الحب دخان والبعض من الوجوه ·· دخان !

عربه المفتاح فى الباب .. دخلت زوجة .. شابة جميلة فى شرخ الشباب .. تشع أنوثة .. شعرها قطعه ليل يزيد من فتنة بياض الوجه المتميز بالملامح الدقيقة ..

دخلت فى خطوات ممشوقة القوام .. سبقها عطر أخاذ .. ندت عنه لهفة .. كلهفة طفل على أمه .

ــ سناء .. حبيبتى .. لماذا تأخرت ؟

ردت عليه بابتسامة ساحرة .. كشفت عن بياض أسنانها .

ــ المواصلات !

ضغط على نواجذه .. داعبت شعره بأناملها الرقيقة .. ووضعت وسادة اضافية تحت رأسه نظر من النافذة الى السماء فرأى طائرا يسبح بحرية ..

بالأمس تكلمت معه السيدة المجهولة ! .. تعرض بزوجته .. وانها تذهب الى أحد البيوت المشبوهة .. فقالت له باصرار أن لديها الف دليل على ما تقول .. ويمكنها أن تمكنه من (تلبس) أى حالة .. بالوقت المحدد بالساعة والدقيقة والثانية !

أقفل سماعة التلفون فى وجهها .. ولأول مرة فى حياته يشعر بالعجز ! .. وحين تكرر زوجته الخروج .. كان يقول لها بمنتهى البساطة والبرود : مع السلامة .

شملته الوحدة القاتله ، سأل : أين اليقين ؟

اتصل بصديقه العزيز (صقر) واخبره بمضمون المكالمه .. فانكر الصديق ما يقول فسأله ، أين اليقين ؟

ــ معنى ذلك انك بدأت تشك

ـ نعم ٠٠ ولكن (اذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)

ـ والمطلوب منى

ـ ما لم أطلبـــه من أحد ٠٠ التحريات الدقيقة والاجـــابة الصريحة ٠٠

انصرف الصديق بعد أن تعهد بالبحث

وعاد صاحبنا الى وحدته القلقه ٠ وطالت ساعات الهدوء المغرى بالانتحار ٠٠ ولا يدرى لماذا نذكر النساء المتساهلات والأجسام التى لا ترد يد لامس ٠

كيف له أن ينسى مرضه المزمن ٠٠ خمس سنوات كاملة فى السرير ٠٠ ولا ينتقل الا بكرسى على عجلتين ٠

تمنى أن يعود عليه صديقه بمعلومات ضد المعلومات السوداء التى وصلته !

الصمت يتمدد فى الحلق بالاشواك ٠٠ قطع الصمت صـــوت الهاتف ٠

ـ آلـــو

ـ أخى ٠٠ يؤسفنى أن أقول أن ما وصلك صحيح ٠٠ وسوف أشرح التفاصيل عند المقابلة ٠

ـ أشـــكرك !

رأسه ينفجر ٠٠ الأكاذيب أصبحت حقائق أكيدة ؛٠٠ لقـد كثر خروجها ٠٠ والاعتناء بمظهرها ٠٠ ورغم انه عرض عليهـــا الطلاق عدة مرات بعد الحادث بسنة ٠٠ ولكنهـــا أبت وقـالت لـه بعطف : لن انخلى أبدا عنك ياحبيبى ٠٠ نحن معا الى آخر العمر ٠٠

لن يفرقنا الا الموت ..

ثم طلبت منه عمل توكيل شامل لتتصرف نيابه عنه فى كل الشؤون المالية . ففعل بضمير مستريح .. كانت تهتم به ـ وقتذاك ـ غاية الاهتمام .

وماذا بعد كل هذا ؟ أينبغى أن يثق فى مخلوق ! .. ها هى زوجته تخونه .. امعقول ما يسمع ؟ .. لماذا تأخر الخبر كل هـذا الوقت ؟ من تكـون صاحبـة المـكالمه ؟ ما مصلحتهـا فى كشـف المستور ؟

استدعى أخصائى تلفونات .. أعطاه مبلغا مقابل عمل توصيلة تسجيل للتلفون فى غاية الدقة والتمويه ..

ومر اسبوع .. لم يسـمع أحد جديد .. ثم جـاء الفـأر الى المصيدة .. مكالمة بين مدير مصانعه وبين زوجته .

ـ آلـو .. يا روحى

ـ أهـلا .. حبيبتى

ـ هل سحبت آخر رصيد له فى البنك

ـ باقى كمية معقوله .. ما رأيك نتركها له ليعيش .. انه عاجز .. واذا أفلس تماما القوا به فى سلة القمامة !

ـ طول عمرى أقول قلبك كبير ..

ـ انا تلميذتك ..

ـ لا .. لقد صرت استاذة ..

ـ تأمر بشىء

قال الصوت وهو يضغط على المعنى : أسمعى ·· لا تتركى له شيئا ·· أريده ان يذوق الذل والهوان ·· ثم نسافر معا لنقضى شهر العسل فى سويسرا ·

ـ لا يصح الكلام فى التلفون

ـ لا يهمك ·· البغل فى الأبريق !

ـ هل تريد شيئا آخر

ـ غيرت موعدنا فى الشقة ·· تعال الساعة التاسعة مساء اليوم ·

ـ لماذا غيرت موعدنا

ـ شغل ·· سوف تفهمى كل شىء

ـ باى ··

ـ مع السلامة !

ترتجف أطرافه ·· تفترسه الحمى ·· عرف الصوت الأول والثانى ·· وقرر أمرا ·· فى تمام الساعة الثامنة جاءت زوجته معطرة ·· ناصعة البشرة ·· دقيقة المكياج ·· شيك ··

ـ هل تحتاج شىء يا روحى ؟

ـ الى أين يا حبيبتى ·

ـ مشوار صغير ·· للخياطة

ـ لا ·· اريدك معى الآن ·· اشعر بالخواء والفراغ القاتل ··

ـ ساعة واحدة وأعود لك ·· ونسهر حتى الفجر

ـ لا ·· أجلسى ·· الخياطة لن تطير ·· كلميها فى التلفون

ـ تلفونها معطل ٠٠ ولم تصرفات الأطفال ٠٠ قلت لك ساعة زمن وأعود ٠٠ أم أعمل بروفة في التلفونات !

ـ حسن ٠٠ مادمت مصممة ٠٠ اعطني كأس من المـــاء ٠٠ حتى اتناول الدواء

ـ اطلب من الشغالة ٠٠ باي (وأعطته ظهرها وسارت في اتجاه الباب)

ـ انظـري

التفتت اليه فاذا به يشهر مسدسا في وجهها

ـ ماذا ؟ هل جننت ؟

وباليد الاخرى ضغط على شريط المسجل ٠٠ سمعت الحوار الفضيحة ٠٠ كادت تجن قال لها بعد أن أغلق المسجل : عرضت عليك الطلاق ٠٠ وعرضت عليك المال فلماذا الخيانه ؟

لم تعرف كيف ترد !

قال وهو غاية في الثبات : لا قيمة لحياتي ٠٠ ولكني لا أحب الفضائح ٠٠ يمكن عرض هذا الشريط على النيـــابة ٠٠ ويمكني استرداد كل قرش أخذيته ٠ فهل أفضح ما كان بالأمس ٠٠ انني يئست من كل شيء ٠٠

غطت وجهها بكفيها ٠٠ أحست انها عارية تماما ٠٠ قال لها : أنظري الى هذا المسدس ٠٠ فيه ساعة قدرك ٠٠ سوف استدعي عشيقك وأقتلكما معا ٠٠ ثم أقتل نفسي

حاولت الفرار ٠٠ اطلق ثلاثة رصاصات في أماكن قاتله ٠

وطلب مدير أعماله ٠٠ لم يجده ٠ طلبه في أماكن يحتمل وجوده فيها فلم يجده ٠ وفجأة رن التلفون ٠٠ وجده مدير أعماله ٠

ـ آلـو .. انت .. أريدك فورا لآمر عاجل وهـــام .... زوجتي في السرير .. يبـــدو عليها تعب مفاجيء .. تعال بسرعة زوجك !

همس لنفسه اذا جاء .. يكون أجله قد حل .

وهرعت الشغالة على صوت الطلق النار ورأت ما رأت فصوب المسدس نحوها .

نفذي ما آمرك به والا .. ليس هناك الا الرصاص .

ـ حاضر يا سيدى

ـ افتحى الباب لمدير أعمالى .. دعيه يدخل .. لا تنصرفى الا فى هدوء .

وبعد لحظات رن جرس الباب .. شاهد الشغالة مرتبكه .. فسر الأمر بانه تعب سيدتها المفاجيء .. وأشارت له بالدخول الى غـرفة سيدهـا .. وانطلقت هاربـة لتبـلغ البوليـس والجـيران بما حدث !

دخل مدير الأعمال .. وجد جثة عشيقته مضمخة بالدماء .. وزوجها يجلس كالذئب ممسكا بالمسدس .. صرخ : ماذا أرى .

فقال الزوج المريض : (لقد لعبت بالنار .. فحرقتها) .. وأشار الى صاحبة الجثة .

ـ ماذا تقول ..

صرخ فيه قف مكانك ياروميو

وأدار المسجل ·· فاعتلت وجهه صفرة رهيبة ·· وسمعت صوت طلقات مجنونه ·· سقط العشيق على وجهه ·· نظر صاحبنا الى السماء فوجد الطائر يسبح فى الفضاء ·· وسمع صوت بوليس النجدة المميز ·· فقال وهو يسدد مسدسه نحو رأسه : فليسامحنا الله ·

● الزجاجة الفارغة ●

وحيدة ·· جلست بين أثاث المنزل الصامت ·· تمزق الساعات اربا اربا ·· وتلقى بهـا على جدار الزمن المهمل ! ·· تحـاول أن تشغل نفسها بالعمل ـ كما نصحها زوجها ـ بلا جدوى ! لا قيمة لقراءة بلا هدف ·· كل شيء للنفس المغلقة ·· مضيعة للوقت !

تتذكر السنوات الخمس وقد مرت على زواجها من طبيب القـلب المشهور ·· رجل دقيق في عمله ·· يشتغل كل اليوم ·· طـــول الوقت ·· لا يفكر الا فى العمل ! ·· أو بالاستثمار يفكر فى التوسع يشترى الأراضى والعقارات الفخمة ·· يخطط لانشاء أكبر مستشفى فى الشرق الأوسط !

وفي يوم من الأيام سقط مريضا ·· لم يفتح التلفاز ·· أمسك بالهاتف ليدير العمل فى المستشفى الخـاص ! · جلست معـه ·· فكان ينصرف الى الهاتف ·· جلس معها يأكل الغذاء ولا يكف عن حديث المهنة ·· ومتاعب الناس !

يدق جرس الهاتف ·· العودة للكلمات فى المشاريع ·· تراقبه يستخدم من المصطلحات ما يجعله أعجميا مائة بالمائة ·· غريب ! ·· كأن العربية لا تفى باغراض الحديث عنده !

نجتر غربة عجيبة ·· تسأل نفسها بحزن حقيقي ·· « أهـذه أمنية العمر ؟ » ! تحلم بطفل يملأ الفراغ ·· يرفض الزوج باصرار غير مفهوم لها ! · غير مقبول منها ! · فهي لا تعلم لماذا يحرمهـا من حقها في الأمومة ! · هل هنـــاك مرض وراثى عنـده ؟ ·· لا تظن ذلك ؟ ·· لقد تجاوز المليون السادس ويخشى انجاب طفـــل ·· ولا يمكن أن يخشى الفقر ! ·· حتى الفقراء يسجبون بجدارة ! ·· نشعر بعقم عاطفى ·· الألم يسرى فى كل بدنها ·· يبهس دخيـها سؤال شرس ·· هل ينوى الغدر بها ؟ ·· هل يفعلها كما تلمح احدى السيدات من العائلة ؟

حاولت أن تشغل نفسها باى شيء آخر ·· فكان الســـؤال يقتحم نفسها ويغزوها فى شراسة ··«لماذا يرفض الانجاب منى؟··لماذا يرفض الامتداد ؟ ·· لمـــاذا ·· » ردت فى بســـاطة وصـدق وحرارة : سلف ودين

رد بقرف واشمئزاز وعدم رغبة فى الحوار : فلسفة فارغة ! · يقولها الناس لتبرير ضياعهم ! ولتأكيد عبوديتهم !

يرتدى ملابسه فى عجلـة ·· ينظـر فى ساعة الحـائط ·· يتناول افطاره بسرعة كما لو كان الأكل مسروقا ·· كل شيء يتعمه بقصد الانتهاء منه ! ·· حتى اللحظات القليلة التى يقضيها معها · يؤديها كما يؤدى التلميذ البليد واجبا ثقيلا ·

والذى يؤلمها كل الألم ·· أن بعض الأقارب ـ العقارب على حد تعبيرها ـ قالوا عنها انها عاقر ·· وقالوا عن زوجها « دكتور شهم ·· لم يطلقها ·· وآثر الحب على الأسرة والمحبة على الأولاد ! » جعلوه بطلا ·· بل ·· حسدوها عليه !

تتمزق ·· تتمزق تتمزق ··

اشاعات ·· اشاعات ·· اشاعات ·· لا تدرى من يروج لها ··

وبالصدفة المحضة ·· سمعته يقول لأمه [هذا قدرى يا أماه ·· هذا قدرى ·· لن أطلقها ·· ماذنبها اذا كانت لا تستطيع الانجاب ·· هذه قسمتنا ·· أرجوك يا أمى من أجل خاطرى ·· لا تتكلمى فى موضوع الأطفال أمامها ·· لا أرغب فى ضرب مشاعرها انهـــا مسكينة ·· مسكينه] ! ولا تملك الأم غير البكاء والأسف على ابنها الدكتور ! صعقت ·· انه رجل معقد ·· رأسها ينفجر ·· العروق تنفر منه ·· التفتت الى علبة الحبوب المنومة فى حجرتها ·· تحتاج الى قرص ·· لا بل أكثر ·· أمسكت بالزجاجه كلها ·· أفرغتهـا تماما ·· راحت تدفع بالحبوب الى حلقها ·· تتجرع المـاء فى مراره وحسرة نظرت الى السماء فوجدتها ســوداء قاحـلة ·· همست فى ضعف ·· وكل قواها تخور ·· تخور تخور : لماذا كل هذا ؟

وسقط الليل بهدوء على كل شىء ·· وساد صمت عميق ·

والقى الشك بظله على البيت الهادىء ·· فحوله الى جهنـــم الحمراء !

كان يخرج من عمله بالمستشفى ـ الذى يعتصره ـ ليعـــود اليه مرة أخرى بعد ساعات قلائل ·· واذا حاولت الاتصال به ترد السكرتيرة : الدكتور مشغول ·· أى رسالة ؟ وفى مرة رد عليها بنفسه : ماذا تريدين ؟ ·· هــه ·· لماذا تتصلين بالعمل ·· هل تحتاجين الى أى شىء ؟ ··

لم تعرف بمــاذا ترد ·· نود أن تقذف بسماعــة الهاتف فى وجهه ·· ولكنها قــالت فى ضعف ـ حقيقى ـ وبصــوت متــوتر : لا أحتاج الى شىء ·· ولكننى أحتاج سماع صوتك ·

ضعف ·· وكل قواها تخو ·· تخور تخور : لماذا كل هذا ؟

رد بعصبية ظاهرة : شكرا ·· أطلبيني عند الأهمية أرجوك ·· فلدى أعمال في غاية الأهمية ·· أحتاج كل دقيقة ·· وتعلمي أن السكرتيرة تعطيك دائما معلومات أكيدة وحقيقية ·· فعندما يكون في يدى عمل أو (عملية) ·· وتقول الدكتور مشغول ·· أرجوك يا زوجتى ·· خذى الأمر بجدية أكثر ··

كادت تبكى ·· همست : آسفة جدا !

يتفل السماعة قبلها ! ·· يصرخ في صدرها ألف صارخ ·· لا ينقصها اى شيء ! ·· ها ·· لاينقصها اى شيء ! ·· ينقصها كل شيء ·· وعندها كل شيء ·· لقد سئمت التسكع أمام الفتارين ·· والمشى في الشوارع المزدحمة ·· وسئمت النوادى وشلة النميمة والوشاية ·· تتذكر كلمات صديقها القديمة حول قيمة العمل للمرأة : ·· هي الآن عاطلة ! هه ·· عاطلة ·· عاطلة ·· عاطلة ·· لا قيمة لها ! ·· حتى حقها في الانجاب محرومة منه ! ·· هذا حق طبيعي ! ·· في البداية كان الأمر مجرد تأجيل ·· ثم جر التأجيل ·· التأجيل ··

تتذكر عشرات التفاصيل ·· مئات التفاصيل ·· وقوفها الصارم والأكيد الى جانبه دعمته بما تملك من مال ·· وسخرت كل أسرتها من أجله ·· وفي البداية شبارك زملاء له في عيادة فخمة ·· ثم انطلق من نجاح الى نجاح ·· حتى أصبح من « القطط السمان » بل من « البقرات السمان » ·· ويسعى الى المزيد من المال والسلطة والتسلط ·· لا تعرف بالضبط متى نسى زوجته ؟ ·· متى ·· متى ·· متى ؟

تطلعت الى ملامح وجهها ·· شعرت بشيء من الألم في صدرها ·· ثم ازداد الأمر فتحول الى ضيق شديد كلما تذكرت كلماته عن الانجاب ·· كلمات شاذة غير مفهومة ·· لا يعترف بسنة الحياة ··

قال لها ذات يوم بصوت جحود : الانجاب ·· الانجاب ·· الخنازير تنجب ·· الكلاب والحمير تنجب ·· الحشرات والهوام ·· تنجب ·· بالله عليك ما أهمية التراكمات ؟ ·· ما أهمية أن نزيد العـــالم بؤسا ·· ونضيف اليه بائسا !

وأمسك ذقنها وقال : هل سمعت بماری کوری ؟ ·· لمـاذا لا تعشقين العلم ؟ الأطفال كارثة ! ·· صدقيني ·· انجاب الأطفال ليس بالعمل البطولى !

أسقط في يدها ·· انسان لا يؤمن بالحياة ·· ظنت الأمـر مجرد دعابة ثقيلة ·· ولكنه تمادى في التأجيل ·· ويعطيها الحبوب كل ليلة ·· بنفسه ! ·· وحين قالت لامها ما حدث صرخت وقالت في جزع : هذا رجل غريب ·· لا يصح أن تستمرى معه ·· هذا أمر لا يمكن السكوت عليه ! · وأضافت وهى تضرب على صدرها ·· أكيد هذا رجل يكرهك ·· بل يكره الدنيا كلها ·· ثم صمتت مدة من الزمن ·· وتطلعت الى ابنتها وقالت : لا ·· بالتأكيد ينـــوى الشر ·· ويعرف امرأة أخرى ··

صاحت في امها : لا يا أمي ·· أنا أعرف ·· لا توجد امرأة أخرى ··

وراجعت زوجها مرة أخرى ـ في سويعات النشوة القليلة جدا ـ وقالت بصوت يجتذبه : ألا تؤمن بالحياة ؟ ·· (صمت ثقيل) ·· فاستمرت تلح في الفكرة ··

ـ الاستمرار ·· كيف تدوم الدنيا بدون أطفال ؟

وامسكته من كتفه وسألته باستنكار : هل يعطلنا الأولاد عن تحقيق أهدافنا ! قال وهو يشيح بوجهه بكل تأكيد !! الأولاد يصنعون من الآباء عبيدا !

● رجل على وشك الانفجار ●

يهيل النبل على المدينة ٠٠ وقلبك مازال يضرب فى صدرك ٠٠ تتجول كالتائه في مدينة من السراديب ! ٠٠ اللافتات تطل عليك في سخرية ٠٠ يأكل قلبك الغل ! عشرات البضائع تطل عليك ٠٠ الآن الأشياء تخرج لسانها لك ٠٠ فهذا صدر مانيكان ٠٠ يطل من فستان الدانتيل المرصع بما يخطف بصرك ٠٠ تحتاج عشرة أعوام من الكد حتى تسدد ثمنه !

يد رهيبة تمسك برأسك ٠٠ وتقول لك ٠٠ انزل الى أسفل !

مسكينة زوجتك ٠٠ ترضى باقل القليل ٠٠ ولا تجاب غير موسم الجفاف ! ٠٠ آخر فستان أشتريته لها كان منذ سنة ٠٠ ثم هجم موسم العواصف !

مسكينة طفلتي وهى تنام في جورب مرتق ٠٠

لكن ما العمل ! ما العمل ؟ ٠٠ تلك الأيام التى تعيشها بلا عمل ! البطالة تفسد الأيام ٠٠ وتنخر فى أعصابك كالسوس ٠٠ وتعيشك أبشع لحظات العمر ٠٠٠ حتى الضرورى أصبح عندك كماليات !

تجابهك الضاحية الواسعه .. تشم مباهج العشاق .. ترى العين مباهج هنا وهناك ! .. لكن روحك مثقلة بالهموم . فكيف تلتقي بالزهور والأشجار وعيون الأطفال ! والمباهج البعيدة .

منذ أن صدمتك السيارة المجنونة وتركتك مكسور الساق .. وتعطلت يدك اليمنى عن العمل ! .. وصار الجميع يذبحونك بنظرات الاشفاق .. ثم تحجر الاشفاق الى الجمود واللامبالاة !

الجزار لم يبعك أول أمس قطعة صغيرة من اللحم .. فتسعذر الدفع أولا ! .. رغم انه يعرفك من سنوات ! يحزنك .

وتسأل نفسك لم نقوم بالجولة التقليدية الكئيبة كل يوم ونبعد عن البيت عشرات الأميال ! .. وتعود مكسحا .. خالي الوفاض .. تجد أطفالك يعبثون بكل شيء .. أو ينكفئون على وجوههم ويعزفون لحنا شرسا من حشرجات الكحة . تعلم أن زوجتك أصابها مرض الصدر وتحتاج للجلوس في المصحة ، والأولاد لا يجدون الرعاية ! ولما لم تجد التقدم في العلاج لأن الحالة متأخرة عادت الى البيت . مصدورة ، كئيبة .. تضطر الى العمل في البيوت حتى تساعدك في جلبة لقمة تسد الأفواه المفتوحة !

هل لك شهية حتى تشعل الغليون القديم وتتأمل كواكب السماء ؟! ماذا ننتظر .. وتنتظر .. العالم كله يحاصرك يا صريع البرد والمطر والظلام ..

انتقلت من الطابق الثالث حيث النور والهواء والناس وفرانده تطل على الشارع الى البدروم الحقير حيث الرطوبة والنشع في الجدران .. والصدور المشحونة بالسعال ! .. وكان صاحب العمارة سخيا معك في هذه الصفقة ! لانك لم تدفع الايجار لمدة سنة كاملة .. كان يمكن أن يطردك بسهولة .. لكنه رحيم ! بل همس لك أنه

تشتغل عنده بوابا وفي نفس العمــارة بدلا من التسـكع في أيـام البطالة ! ·· وكدت تقبل لكن زوجتك احتجت وبكت ·· وحين أردت أن تنام معها أمس رفضت ! ·· ووضعت وجهها في الجدار ·· وظلت طول الليل تطالع سقف الحجرة حيث الوزغ في الركن يبادلك الرعب وعدم الارتياح ! ·· وتتخلص في شـكله المصلوب الفظيع ! بشاعة ! ويضيق صـدرك أكثر وأكثر وأنت تتنفس في غرفة في حجم حقيبة السفر ! ويظل الأولاد يسعلون ويسعلون ·· وجافاك النوم ·· لابد من الفرار ·

فخرجت الى الشارع في عمق الليل ·· ليقابلك الشرطي بعد مراقبتك من بعيد ويسألك عن سبب تجولك بجوار الدكاكين في وقت متأخر ! ·· انه يشك فيك بل يتهمك ·· فهل ترد عليه في خشونة ؟ أم تتحمله وتقول له في ذل الابل انك خرجت تبحث عن هواء نقي ! ·· فيهز رأســه الكبير متعجبا فتؤكد على ما تقـول : سيدى أنا لم أمد يدى على مال أحد ·· وهذا سر ما أنا فيه من فقر وعوز ! ·· فيرد عليك بخشونته : هيا أغرب عن وجهي ·· والا ذهبت بك لتنام على بلاط المخفر ! ·· ونرى ليلة أسود من جبين الليل !

فلا ترد عليه ·· وتفكر ·· ويشغلك التفكير ·· ويلاحقك السؤال الرهيب ماذا ستفعل غدا ؟ ماذا تفعل مع الأولاد ؟ ·· أي شيء سيأكلون ؟

هل تترك زوجتك فريسة للسل ؟ ·· أين رجولتك ؟ ·· لقد تزوجتك المرأة وظنتك رجلا تحميها !! · فكان ما كان ! · وتسأل نفسك في مرارة (هل أنا رجل ؟) ما قيمة الرجولة مع الفقــر والعوز والمرض والجهل !؟

وتسأل نفسك فيم الغضب ؟ ·· فيم العناء ؟ ·· فيم تلك الثرثرة الفارغة بلا معنى ؟ المهم رغيف الخبز ! ·· أنت تصف

آدمى ! • وقد نقصت رجولتك حين ذهبت تعمل حمالا ، فخـــانك جسمك ! • ولكنك كنت تستبعد التشاؤم الوحشى • لقد تعلمت فى الصغر صبر النملة ! • ألست فى قوة النملة ؟ •• ليس المهـــم أن تعمل بجسمك أعمل بعقلك •• وماذا تعمل بعقلك ؟ هل لديك عقـل ؟ •

وبينما تتشاجر مع نفسك ترى رجلا يترنح •• كبير فى السن •• يكاد يسقط •• يسقط فعـلا فى أرض موحلة ! •• تقترب منه •• يرق له قلبك •• تسأله فى ايحاء :

ـ سيدى •• هل من خدمة أؤديها لك ؟

تنهضه من الوحل •• فيطرح عليك سـؤلا : هل أنت لص !

ترد عليه فى ألم : وهل ترانى فى شكل لص ؟

ـ لا أرى جيدا •• الآن !

ـ هل تحتاجنى فى شىء أم أذهب فى طريقى ؟

ـ يبدو انك انسان طيب •• وصلنى الى المنزل !

ويظل الرجل يتوكأ عليك •• لكنه لا يستطيع المشى •• حتى حملته على كتفك مسافة طويلة •• واذا به يشير الى فيـلا أنيقة : هنا •• انزلنى هنا !

ـ هنا •• فى هذا القصر الفخم !

ـ هذا ليس قصرا يا حيوان •• انه فيلا

ـ ما الفرق ؟ •

ـ القصر أضعـاف أضعـاف الفيللا •• خذ المفاتيح وأفتح البوابة : •• ولكنه يقبض على المفاتيح فى ارتعاش ويعود يسألك : هل أنت حرامى ؟

قلت له فى تأفف وأنت على وشك ضربه ضربة ساحقه : لا ٠٠

ـ اذن خذ المفاتيح وافتح الباب !

وهجم عليـك الـكلب الضخم ٠٠ كـاد ينهش أحشاؤك ٠٠ فجريت ٠٠ فجرى خلفك ٠٠ صـاح فيك الرجـل العجوز : قف ياحيوان !

فوقفت وأنت تلهث ٠٠ ونادى على كلبه فامتثل فى الحال ٠٠ وعاد الى صاحبه يقف بجانب حذائه المبلل ٠٠ ويلعب ذيله الخشن الرمادى ٠٠ وينظر اليك بوجهـه الذئبي ٠٠ قف ٠٠ دع الـكلب يشمك ٠٠ لا تخف !

وعاد يسألك بضعف : هل أنت حرامى ؟

يستفزك السؤال فتصرخ كالمذبوح : لا ! لست لصا !

ـ اذن لا تخف ٠٠ الكلب يعرف ذلك جيدا !

ترد عليه بعصبيته ٠ وأنت ٠٠ ألا تميز ؟

يرد ببرود عجيب واعياء : لا ٠٠ الانسان يعيش بين اللصوص ٠٠ فى منتهى الرضـا ويلقى بنفسـه بين القتلة عن رضى وغفـلة وحمق !

ورحت تتجول فى الفيلا ٠٠ بل قصر فاخر بلا شك ٠٠ ما قيمة ما يقوله الرجل العجوز ٠٠ تجتاحك مظاهر الثراء فى كل مكان ٠٠؛ سجاجيد تبريزى ٠٠ عجمى ٠٠ حوائط مجلده ٠٠ رياش طنافس ٠٠ أثاث لين ٠٠ مكتبة فاخرة عامرة بالكتب المذهبة ٠٠ بلغات مختلفة ٠٠ رجلك تغوص فى أشياء ناعمة ٠٠ ناعمة أكثر مما ينبغى ٠٠ يسألك الرجل : هل أنت جوعان ؟ ٠

ـ نعم ٠٠ فى شدة الجوع والتعب ٠

أشار في اتجاه المطبخ وقال لك : اذهب وأطعم حمارك !

ـ ماذا تعني بالحمار ؟

ـ أعلى جسمك يا غبى !

ـ فهمت .. فهمت .

ودخلت المطبخ .. فوجدت دنيا أخرى .. بلاط قيشاني .. شغل جارة شديد الروعة دواليب .. ثلاجة ضخمة لم نر مثلها في حياتك التعسة .. هتفت من أعماقك ـ يا الله .. اننا لا نحيا .. اننا حيوانات .. حيوانات .. حقيقى مجرد حيوانات :

وهجمت على المشويات والمقليات والخضروات وفاكهة لا نعرف لها اسما .. آكل شهى .. شهى .. وظللت تأكل حتى امتلأت .. وتلاشت أوجاع المعدة .. وخفت موجات الغضب العارمة التى تنتابك بين الفينة والأخرى ! .. ويتغلف حقدك في غلالات خادعة .. لكنك تتذكر أولادك .. تداعبك أحلام كاذبة .. وآمال وهمية .. سوف يصلهم غدا أطيب الطعام .. لقد ارسلك الله الى هنا .. وارسل فى طريقك هذا الرجل الطيب .. الغنى .. وتزحف على عقلك المخمور ذكرى الحادث المشؤوم .. وأيام العذاب في مهن متعبة .. كنت تدحرج البراميل في المصانع .. في أرض مليئه بالزيوت الوسخة .. أو تغسل الأطباق فى المطاعم الفاخرة .. وتحاول أن يشاهدك صاحب المطعم وأنت تأكل ! .. وتتذكر جولاتك على الأرصفة وأنت تمسح أحذية الناس .. تنحنى على الأحذية فى كل لون .. على أرصفة متآكله .. وتنام بجوار جدار ملوث وتشتم رائحة البول .. أو تسمع غزل الأوباش في الحدائق العامة ! تنحني .. تنحني .. تنحني .. فيشعر من أمامك بالسلطة والجبروت .. ونادرا ما تحدث العاطفة أو يشفق عليك الناس ! .. الآن شبعت .. فهل تكف عن

الترنم بهزيمة الانسان ·· أنت شبعان ·· وأطعمت الحمار بافضل طعام ·· عليك أن تسترخي ·· بل ·· تنتشى ·· وترحل فى موجه من الأنغام الحالمة ·· أن تنسى سعال زوجتك أو الصغار ·· فلتنس ·· ولو ليلة واحدة ذلك البيت الأسود ·· الصغير فى حجم حقيبة السفر الرافد فى نسع المجارى ·· نحت دبيب الاحذيه الحسنه !

الآن ·· هل تستطيع النوم ·· وتفارق لحظات الكآبة ·· ونرفد حيث جميع السلالم فى موسيقى القلب العتيق ·· تنشد سلم الوهم ! ·· انتسى · انتشى رغم ضياعك فى صحارى القلوب : ·· لا تجهد نفسك الآن فى رحلة البحث عن ينبوع الشفاء ·· وتتقلب أيامك مثل المرجل ! ·· الآن ·· هل تصدق انك تنام فى قصر منيف ! فهل يتعلم قلبك أناشيد الثناء ! ربما يسمح لك الرجل أن تأتى باولادك هنا ·· لنخدمه ·· يبدو انه يعانى من عزلة ما ! ·· النشوة تقفز الى صدرك للفكرة الأخيرة ·· تذهب الى الثلاجة العامرة بأطيب الطعام ·· لكنك تكتفى بزجاجة من المشروب المثلج ·· رحت تعب فى جوفك الملتهب ·· العصير يحدث فى سقف الحلق نشوة فوق الحلم ·· تشعرك بالسعادة ·· والانسانية والأهمية والرغبة والفوز ! ··

ثم تخور عزيمتك ·· وتتمدد على فراش وثير ·· بالقرب من صاحب المكان ·· ذلك الرجل الطيب ·· ليته يرضى أن نعيش معه ·· هذا أقصى ما أتمناه الآن تردد الكلمات ·· وتغفو ·· تغفو ·· تغفو بالساعات ·

ينهض الرجل العجوز ·· يلكزك فى جنبك بعنف ·· الكلب يقف على رأسك كالضبع المتوحش ·· يزمجر ·· يزمجر ·· يزمجر ! ·· الشمس تضرب فى عينيك كانها أعداد هائلة من الأذرع والأعين ·· بل الجيوش اللامتناهيه من الحراب الحادة المسننة !

وجه الرجل العجوز يقطر شراسة ووحشية ·· يصرخ فيك

ـ من أنت يا حيوان ؟ من أتى بك الي هنا ؟

ـ أنا كنت هنا ·· منذ ·· منذ ··

ـ منذ متى يا حرامى !

ـ تذكرت ·· هذه كلمتك لى حين قابلتنى في منتصف الليل وحملتك على كتفى الى هنا ·· اتذكر يا سيدى ·· أتذكر ؟ ·· كنت لا تستطيع المشى وحملتك على كتفى هذا ؟ ·· أتذكر ؟ هه ··

ـ ثم استغليت ضعفى وعدم وعيى ·· وسطوت على المطبخ يا سفاح !

ـ لقد أذنت لى بالطعام يا سيدى

ـ ها ·· وانا فى عدم وعيي يالص !

ـ لست لصا يا سيدى !

ـ اذن كيف تبرر نومك هنا ؟ ·· ماذا دفعت ؟ ·· هه ·· ماذا دفعت للطعام ؟

ـ لا شيء ·· كنت أظننى ضيفك ·

ـ ضيفي يا جربوع ! · أنت لص ! · حقير جبان ·· سوف أستدعى الشرطة ·· واستدرك الرجل الأمر ·· ولمعت عيناه بالرغبة في الانتقام ·· لا ·· ليمزقك كلبى هذا أولا ·· قبل أن تخرج من هنا ·

وأشار الى الكلب ·· فهجم عليك ·· يعضك ·· ينهشك ·· يمزقك ·· تصرخ فى ألم ·· الدم ينزف ·· تبهر عينك بالدموع تصرخ ·· تصرخ ·· بينما العجوز الشرس ·· يضحك ويضحك

حتى يستلقى على قفاه ·· تحاول أن تجرى ·· يلحق بك الكلب ·· كأنه جيش في كامل أسلحته ·· يخربش البطن ·· والفخذ والظهر ·· تصرخ وتصرخ ·· والعجوز يأمر كلبه في سادية عجيبة أن يداعبك بمخالبه وقد ذهبت عنه مظاهر البلاهه والجمود ·· وانتشى وأشار بكفه الى الكلب ·· فسكت الكلب فى الحال ! كانه جندى مرتزق أو كمبيوتر مطيع ! ·· وعاد يسألك في نغمة عدوانية : هل أنت حرامى ؟

وتبكى من عض الكلب ·· وتبكى أكثر من عضة السؤال : كلا سيدى ·

_ اذن تذهب من هنا ولا تعود مرة أخرى والا تركت الكلب يمزقك ، ويكمل عليك وسوف أعفو عنك ولا أسلمك للمخفر ! ··

تصرخ الجراح فى جسدك ·· لكنك تقول فى ذل تعوده : أشكرك يا سيدى ·· لقد أكرمتنى بما يكفى ! ··

وتخرج ولا تصدق أنك نجوت بجلدك ·· تتكوم على الرصيف فى هزيمة كاملة ! تبكى فى نشيج مكتوم !·· ينحنى عليك أحد البسطاء ·· ويلقى فى كفك بقطعة نقود ·· فتلقيها من يدك على الأرض كأنها عقرباء ·· تجرى قطعة العمله المعدنية فى سرعة شيطانية الى بلاغه المجار ! ·· تصرخ فى الرجل :

_ لست شحاذا ·· انا انسان شريف !

يرد عليك الرجل حائرا : متأسف ·· لم يكن قصدى جرحك ·

ويمشى من أمامك ·· يظنك مجنونا ·· تتطلع الى سماء المدينة الواسعة ·· فراغ يمشى فيه ليل مرعب ·· فراغ أسود يطل على مبانى شامخة ·· قلاع محصنة ·· تصرخ فى ألم : لا بد أن نعيش

.. لا بد ان يعيش أولادى .. سوف أعود لك أيها العجوز السرس .. أنت وكلبك الحقير .. أنت وأمثالك من الكلاب !

وتذهب من غضب الى غضب وتستجير من الظلام الى الظلام .. تسرق خنجرا من بائع متجول ينام في بؤس بجوار جدار .. وتهمس لنفسك في شجاعة مزيفة : غدا يأتيك الليل المرعب أيتها المدينة الحقيرة .. سوف تتوقف الثرثرة تحت المصابيح العتيقة ! سوف تشرق شمس جديدة .. نجفف العيون التى ورمتها دموع الذل .. نصرخ حتى يستيقظ الذئب في أعماقك السحيقة .. وتقول بجدية عجيبة : سوف تعيش زوجتى وتكافح .. وأشاركها وخزة متوهجة وسوف نصل معا الى نقطة الذروة .

تنظر الى السماء السوداء بلا خوف ولا وجل .. نقبض على الخنجر اللامع في عصبية .. وتسحب خطواتك نحو الأبنية المعتمة !

تقول لنفسك .. لتبدأ الجولة بصاحب الضحكات الفارغه المتوحشة .. وتذهب في سرعة متوحشة ، خاطفة ، ضد احساسك بالتفاهة .. وضد رهافة العذاب ..

تهمس في اصرار له صوت السلاسل وتستلهم من جراحك بوصلة الاتجاه ولا تعبأ بموقع القدم وهو يدوس الأشياء العتيقه ، المكدسة في مدينة على وشك الانفجار .

● حكاية الشيخ مبروك وصابرين ●

في حضن الوادي الأخضر .. ترقد القرية الآمنة .. وتستقبل العين ألوان الزهور اليانعة .. وتنتشى النفس بنسيمها العليل وأريجها الفواح .. ومن يمر عليها يحسبها قطعة من الجنة ! ..

ولكن .. في أحد بيوتها .. دخل الحزن .. وجلس أهل الدار وكأن على رؤوسهم الطير .. يتوسطهم الشيخ (علي) في عقده السابع .. قليل في جسمه ، في عينيه نظرة خابية .. يمرر يده النحيلة على لحيته البيضاء .. يستغرقه التفكير في حال ابنته التي أصابها سهم القدر فأصبحت ورقة ذابلة .. وسبحان من يغير ولا يتغير ! وبجواره زوجه أم صابرين التي تقوم بخدمة الجميع في صمت ورضا ..

وها هم يتحلقون حولها في محبة .. وجزع .. لما أصاب ابنتها .. وها هي تجلس تارة وتنهض تارة أخرى .. تلبي طلب زوجها أو ضيوف البيت ثم تدخل لتلقي نظرة اشفاق وحب على ابنتها صابرين .. الملازمة للفراش مدة طويلة والتي تطالع الجميع رغم كل شيء .. كالملاك الجميل .. وانها فتاة مؤمنة .. ترضى دائما وأبدا بقضاء الله وخيره وشره !

وبينما أم صابرين تقوم بصنع الخبز وهي ترفل بثوبها الأسود الفضفاض شأنها شأن كل بنات جنسها في هذه القرية . فاذا (بحسنية) تقبل بروحها المرحة وقوامها الممشوق وتبدو بنشاط لا محدود كأنها تجسد أرواح سبعة نساء معا يعملن بهمة ونشاط وحيوية منقطعة النظير !

جاءت في هذه اللحظة كنقطة الندى تداعب القلوب اليابسة والزهور الذابلة .

وراحت نطمئن على حال صابرين . أجمل فتيان القريه . فقالت « أم صابرين » بأسى : الحال على ما هو عليه .. سنة كاملة يا حسنية .. سأموت كمدا .. ياليتني أفديها بنفسي .. وانخرطت في بكاء ..

قالت حسنية : هوني عليك يا خالة .. انه قدر ومكتوب .. وربتت على ظهرها واستطردت مداعبة : أم صابرين .. عندى لكم بشارة .

وفي هذه الأثناء سمعت والد صابرين يناديها لعمل الشاى .. فقلت حسنية : حسنا يا خالة .. دعيني أقوم نيابة عنك بخدمة الضيوف .

قال الشيخ وهو ينظر اليها : تعالى يا حسنية .. كلهم أهلك ..

ألقت حسنية السلام وقالت وعلى وجهها فرح : هل سمعتم عن الشيخ مبروك ؟ .. وأكملت بحيويتها المعهودة .. ان شهرته تسبقه دائما .. وله أعمال بر كثيرة .. وبركاته أكثر من أن تحصى .

فقال أحد الجالسين مؤمنا على كلامها ٠

ـ فعلا ٠٠ سمعنا عنه العجب العجاب ٠

قالت امرأة : سمعنا عن امرأة حملت بعد سنوات عقم طويلة ٠٠ هو بلا شك رجل مبارك ٠

قالت أم صابرين : لقد تعبنا من الأدوية والأطباء ٠٠ وأخشى أن تمتد الحال بهذه المسكينة صابرين ٠

قالت أحد الشباب : وهل تنجح الشعوذة فيما عجز عنه الطب ؟

هب الجميع للدفاع عن الشيخ مبروك ٠٠ كما يدافع اليائس عن الأمل !

وأقسم أحدهم للشيخ (على) والد صابرين ٠٠ أن يصحبه لأحد المرضى وقد شفى تماما من مرض عضال ! ٠ وأردف الرجل ٠٠ ان الشيخ مبروك معجزة ! ٠٠ أهداها الله للجميع ! ٠٠ وكل ما فعله الرجل حتى الآن خير وليس بشعوذة ٠

اشتد الحماس بأم صابرين فقالت : وأين نجده يا حسنية ؟

قالت حسنية وقد شعرت بأهميتها : الشيخ مبروك ٠٠ لا يفرغ أبدا ٠٠ تتمنى أن يجد وقتا لحبيبتنا (صابرين) ٠٠٠ سأذهب اليه لأحدد معه موعدا فهو رجل الخير باذن الله ٠

كانت « صابرين » فى السابعة عشرة من عمرها ٠٠ فارعة الطول ٠٠ يلتقى شعرها الفحم مع بياض وجهها ٠٠ فيتألق الحسن كله ٠٠ ورغم المرض فبريق عيناها يسحر من يراهما ٠٠ كانت تملأ الدنيا حيوية ونشاطا وفجأة وهى تجرى فى الحقول الخضراء

أحست بألم شديد في ظهرها · ورجعت الى البيت تتلوى ·· وقالت لأمها : ظهرى يا أمى ·· يؤلمنى أشد الألم !

ورقدت فى الفراش ·· واستمر الألم ·· ومر اليوم بعد اليوم ·· والشهر بعد الشهر :

وعجز الأطباء عن شفائها ·· وباع والدها فدانا كاملا ثمنا لعلاجها فى أفضل مستشفيات المدينة ·· بلا فائدة ··

قال الناس ·· انه الحسد ·· العين !

كان أبوها كريما متدينا ·· يكرم الضيف ويعطى المحتاج ويحسن للسائل والمحروم ·· فتعاطف معه الناس ·· كلما سمعوا بحال ابنته صابرين !

واستقرت سحابة الأسى فوق البيت ·· ولكن الرجل كان يكثر من الصلاة ·· ويطلب من الله شفاء ابنته ·· ويقول للناس ·· « الحسد مذكور فى القرآن ·· ولكن لا ننسى أن الله قد يبتلى عبده الصالح !

وأقبلت حسنية بمرحها وقالت : الشيخ مبروك قبل زيارتكم بسرعة ويبدو أنه يعرفكم ! ·· وسوف يزوركم غدا رغم عديد مشاغله ·

فانتظروا الرجل على أحر من الجمر ·

وأقبل الشيخ مبروك فى طلعة الفارس ·· يزين وجهه لحية وقورة ·· وترسم ملامحه الجميلة الجادة ·· نحيل الجسم ·· تشير هيئته الى تجاوزه الخمسين ربيعا ·

قال لهم بصوته الواضح : السلام عليكم ·

الكل رد تحية الشيخ مبروك .. ونظر البعض اليه كأنه طيف من السماء .. لا غبار على ثيابه .. لا جهد على حصانه .. قدموا كل أنواع التكريم فكان يبتسم .. واكتفى برشفة ماء .. ثم طلب من الجميع الخروج لينفرد بالمريضة .. وترددت الأم قليلا ثم غادرت المكان ..

نظر الى عينيها .. كأنهما غابتا نخل .. يشع منهما سحر البيان .. وجدها متدثرة فى لباس جميل .. لكن البدن يعبر عن نفسه فى روعة التكوين . قال لها : اذن أنت صابرين !

كأنه يعرفها .. يبتسم اليها فى رقة وعذوبة .. سألها عن الألم .. مكانه .. مدته أثره .. ثم قال : باذن الله سيأتيك الشفاء العاجل .

أثلجت كلماته صدرها .. وسبقته اليها سيرته العطرة .. يتكلم كأنه يقرأ كتابا مفتوحا .. وتعجبت من ثقته .. نظراته تخترق رأسها قال لها :

ـ سوف تشفين .. سأحضر لك بعض الشراب والأعشاب .. وبعد أسبوع سآتى لأراك وأنت فى كامل العافية والبهاء .

انشرح صدرها .. قالت وقد غضت البصر .. وعضت شفتها السفلى خجلا .. وفرحا .

ـ صدقنى يا شيخ مبروك .. لو حدث .. أعطيك كل حياتى .

تعجبت من نفسها كيف تقول هذا الكلام لهذا الرجل بالذات .. ولكنها لم تتراجع .

قال الشيخ مبروك .

ـ اذن اتفقنا .. أن تعطينى ما قلت .. وأكون خادمك .

نكست رأسها موافقة ·

قال الشيخ مبروك يستثمر الفرصة : الرضا هو الأهم ·· وحين يتوج رأسك الشفاء ·· أرجو أن تفكرى فى كلامنا ·· وأنا رجل أعيش أبسط حياة ·· وأعرف عنك كل شيء ·· المهم الآن أن تشفى ·· ثم يكن ما يكون ·

وكان يستعد لجمع حاجاته وقال لها قبل أن يغادرها : ما قلناه سر بيننا وصافحها برفق ·· شعرت بسعادة غامرة ·· لا تدرى لها سببا ·

وتعاطت الدواء بكل شفق وحب ·· رغم شديد مرارته ·· وأحست بعودها يشتد ويقوى ويتماسك ·· وشعرت بالحياة ترتوى فى أعماقها ، بل راحت تمشى وتمرح وتضحك وتلعب وتقول النكات ··

وتكرر فى المساء كلامها مع الشيخ مبروك ··

وآمن الجميع بمقدرة الشيخ مبروك وبركاته ·· فلما حل موعد قدومه ·· استقبله كل الناس بعظيم الاحترام والتقدير ··

وقال له والد صابرين : أطلب أى شيء ·· تجدنا تحت أمرك ·

وطلب الشيخ مبروك يد صابرين !

رحب الرجل بالشيخ مبروك كزوج لابنته رغم الفوارق بينهما فى السن ·· واعترض أحد مثقفى الأسرة ·· فرد عليه والد صابرين : السن ·· هل السن كل شيء ! ·

والثقافة ·· ما هى الثقافة ·· والعلم ·· ماذا فعل لنا الأطباء الكبار ·· المهم الأثر الطيب ·· لا الكلام الغث ·· وقبل كل شيء النضج والحكمة والايمان ·

وأضاف الرجل .. أنا سعيد أن أصاهر رجلا كهذا الرجل ..

وشاركته أم صـــابرين رأيه .. ودخلت البهجة البيت الحزين .. وتم زواج صابرين بالشيخ مبروك .. وذهبت معه الى بلاد بعيدة عن طيب خاطر .

وكلما اشتد البرد وتحلق الناس حول المجمرة .. يتذكرون حكاية الشيخ مبروك وصابرين .. وتعالج النساء بقية الحكاية .. التى صارت من حكايات الشتاء .

ـ هدد الشيخ مبروك صابرين بسحره !

وتقول أخرى : لقد انفرد بها ونفذ السهم !

وتعلق أخرى : ولكنه سهم الشفاء .. فقد عالج الداء من جذوره وتشير الى مكان ما بين الفخذين .. فيضحكن فى نشوة !

وحين يتعبن من الحكايات .. تقول احداهن بخوف مصطنع .

ـ مالنا والناس .. لندع الخلق للخالق !

• ليلة العرس •

الوحدة ! ·· حتى فى ليله عرسه ·· هل يصـدق هـذا الأمر ؟ ·· بعد كل الزفـة ·· وعشرات الوجـوه ·· الشراب والأغانى ·· الرقصات · تعود الوحدة تزحف عليه !

تفكير سليم ! ·· أليست معه ما كان يتمنى ؟ ·· الحبيبة صارت زوجة ! ترى هل نجح فى اختيار شريكة من دنيا غامضة ؟

أحس كأن شيطان أمضغه ليمونه ! فراح يبصق ! ·· لماذا الامتعاض :

خفقات القلب توقفت عند نغمات حزينة ! تذكر كلمة سيدة عجوز ·· تربت على ظهره ! هيا أقتل نفسـك من الفرحة ! ·· أعصرها ونم غالبا ! ·· ردت عليها أخرى كالمومياء : « يالها من ليلة ·· ناس كثيرون يتمنون شهر العسل » ·

هل يبدو عليه الفرح ! لماذا تعصره الأحزان ! ·· لماذا يموت غما · فخذ المرأة ليس الطريق المؤكد للسعادة !

راح يدور حول نفسه في شقة مزدحمة بالأثاث ·· راحت العروس تضغط برفق على راحتيه وتقول مبتسمة ·

ـ باذن الله ·· سنكون أسعد زوجين ·

آمسك بسنرة المنامة وقذف بها في أحد أركان الغرفة ! ·· الحر شديد هذه الليلة ·· يتقزز من رائحة العرق ·

التقط بيديه المرتعشتين ·· مجلة ·· أى تصرف سخيف ! ·· ليس هذا من اللائق ! ·· فزع من نفسه ·· نظر من النافذة ·· يرنو الى قطعة سوداء من السماء ·· كانت النجوم ترتجف رعبا وقلقا !

هذه النجمة البعيدة ·· أقرب الى الأرض من قلبه الى نفسه ·· وكأن مطرقة ضخمة تهدده بالانسحاق ·· راح يتطلع الى سقف الحجرة في قلق : · يريد أن يغيب عن وعيه ·· بالنوم ·· وربما ينعشه الحمام البارد ·· وسمع صوتها النسائي الجميل ·· تدعوه للطعام ·· امرأة عملية حقا غيرت ملابسها ·· ورتبت المائدة والزهور ·· ولكن أين الشهية ؟ حياة غريبة عليك ·· سيغزوك الكسل حتما ! ·· لابد أن يجاملها ·· يرى في الأفلام من يطعم زوجته ·· أو تطعمه زوجته ·· لا يطيق هذا العبث !

لابد أن يغتصب ابتسامه ·· ألا يشفع لها كل ما تقدمه له من أسباب الراحة !

انها تحرص على رضاه ··

أكل شريحة من اللحم ·· كميت يأكل ميتا آخر ·· وكأنما قذف في بطنه بطوربيد تطالعه بوجهها الجميل ·· شعرها الأسود الفاحم ·· تنظر اليه بعينين يشع منهما المرح ·· لا يعرف لماذا ؟

أنفها جميل .. لكنه مجرد أنف أليس كذلك ؟ .. يتصنع الابتهاج مثلها .. ولكنها فعلا سعيدة مثل جائع وصل الى أشهى طعامه ؟. أما هو ! كمن يجلس على فوهة بركان ! ضمهما الفراش .. كشيء حتمى فى الليلة الأولى . جريئة تدغدغه بالقبلات ! .. القبلات الحارة .. اللزجة ! .. تبدو كعصفور انطلق من قفصه .. أزعجه مبادراتها ! .. يديها تفتش عن الجوارح .. كان الشقاء لا يبارح الموتى .. والشيء الذى ينقر فى قلبه يزيد من شـوقه الى عـالم جديد !

ورغم أنها الليلة الأولى فكأنها الليلة المليون .. غريب هـذا الاحساس بالزمن والمكان .. والفعل ورد الفعل .. سمعها : حبيبى الغالى .. كم انتظرتك .. فلاتكن ثقيلا وصرخ صارخ فى الفضاء فلا مجيب .. يجاملها : وأنا أيضا .

شعرت بالبرودة فى تصرفاته فقالت له : ألست على ما يرام ؟

حدقت فى عينيه بومة شرسة النظرات .. فهل قذفها بحجر ؟

ـ لا أنا بخير !

ـ هل أعجبك العشاء .

ـ ممتاز !

وتذكر يوما كان على حافة الموت .. يتفرس فيه الضياع .. راح يغسل نفسه من آثار مرض مزمن .. وبعدها صار مثل أنبوبة تجرى فيها الحياة !

يريد الذهاب بعيدا .. سألته بجزع : الى أين فى هذا الوقت ؟

كانت ملتفة حوله كورقة توت دافئه .. قال لها بتقريرية : أحتاج الهواء النقى .. سأجلس قليلا فى الشرفة وأشرب الشاى وأعود ! ..

قلت بدهشة من يرفض تصرفه : ـ هكذا .. وفى هـذا الوقت !

ـ الوقت ملكنا .. ولسنا ملكه .. أليس كذلك ؟

وزحف الليل وتوغل ..

ارتفعت مطرقة الى أعلى .. ينتظر ضربة قوية !

فرقعت بالخارج عجلة سيارة عند المنحنى !

راح يمسح عن نفسه دفء المرأة الذى يقتل الرجل وضميره ! .. نظر اليها .. وجدها هادئة .. الآن تتركه بلا سؤال .

جلس وحيدا .. سجين غرفة مكتبه .. ووضع رأسه بين راحتيه .. الصور تذهب وتأتى .. وتسافر الى الأعماق وتبرز على السطح ! تطالعه صورة صديق وسيم تنبض الصورة .. تتحول الى كيان حقيقى .

ـ أهكذا يتقابل الأصدقاء !

يعاتبه .. ألح عليه الشيطان .. ودفع بالليمونه الى أعماقه الحزينة ، السائل الحار يندفع الى جوفه .. يتمدد فى أعماقه .. يتلوى كالأفعى !

ـ أهكذا يتقابل الأصدقاء !

راح العصفور ينقر قلبه .. جرح ينزف .. يكابد .. الشاب ينظر اليه فى احتقار أصابع رهيبة تعبث بالفؤاد .. أصابع المرأة الأفعى تتخلل شعره .. وفحيح الصوت الجنسى .. يزيد الحموضة فى جوفه .. ارتفعت المطرقة الى أعلى مهددة .. يعاتبه الشاب .. صديقه القديم الغائب فى رحلته الأبدية : أنسيت العهد ! ؟

أمسك بالقنب ·· وجده مضخة تالفة ··

وفرحا ·· انطلقت السيارة من منحنى الطريق ·· يبدو أنها شفيت من العطب !

يتسع المكان ويضيق ·· عشرات الوجوه ·· أقنعة معادية ·· ألف لسان يحاكمه بلا مبرر !

صورة الشاب لا تفارقه ·· قال له : سرقت منى حبيبتى يا نذل ··

ـ لا ·· لم أسرقها ·· والحب لا يسرق ·· ولست نذلا ·

ـ أين العهد ؟

ـ محفوظ ·· في صدور القلب الأبيض ·

ـ في الخيانة ·· يا مقبور القلب ! ·· في جب الشر ·

ورفع الشاب يده ولطمه على خده لطمة قوية ·· ارتعد ·· نظر حوله · وتغيرت الصور فلا أحد معه فى الغرفة ·· مجرد أشياء تطل عليه ·· مكتب ·· كرسى ·· ستارة ·· سجادة !

ولكن الصفعة محفورة فى وجهه ··

يغمض عيناه ·· الغرق يغمره ·· يهمس لصديقه ·· صدقنى ·· لم أسرقها ·· صدقنى لقد مت ·· وتركتها ·· والأحياء يتعاملون مع الأحياء ·· أليس كذلك ؟

يعود الصمت ·· ارتجف من حوار الموتى ·· فمن قال له انه لص ·· بل هو المسروق انه يحب مساحة ليست له ·· قلبه كالبندول ·· لا ·· لا ·· سيعيش كما يريد لن يخضع لسطوة الأوهام والموتى ·· لماذا يستسلم لهذا الترجيع المر ؟ اللعنة على كل

شيء ·· ان المرأة معي ! ·· ملكي ! ·· هي الآن زوجتي ! وتحبني! كما تقول ·· ولابد أن أحميها من الوساوس في رأسي ·· والبغضاء والحقد والمرض ·

تملكته رعدة ورجفة ·· وحين عاد وجه الشاب اليه لكمه لكمة قوية أحدث ضجة أطارت بالمصباح الكهربائى ·· نهضت العروس منزعجة ·· وجدته يعانى والدماء تنزف من راحتــه اليمنى ·· إحتضنته في فزع ·· وبكل رحمة وحب واشفق انحنت عليه تعالج جرحه راح يبكى فأبكاها معه ·· وبينما تضمد جراحه لطمها ، لا تلمسين·· تراجعت : ماذا تقول :

وغمغم وعلى عينيه سحابة ضبابية : لا تفسير ·· وفتح الباب وترك خلفه عــلامة استفهــام ·· تبعته زوجته المذعورة ·· راح يركض ·· وهوت المطرقة الضخمة ·· صرخ ·· اللعنة على كل شيء ·· اللعنة ·· اللعنة ودفن بيديه الجريحة وجهه وراح يعوى ككلب مضروب ··

● هستيريا ●

« وانقض الليل على النهار »

كأنما انغلقت السماء ، شرخ ببرق ، يشق الصمت ويأذن للمطر أن ينهمر مدرارا • المطر الغزير يضرب جلده ، يصفع لحمه ، يطرق عظمه ، ينهال على عقله وقلبه . جسده الصغير يرتعش •

ما زال يمشي كالتائه ، وجد نفسه وحيدا في حديقة مطلة على لسان الجزيرة ، كان هذا مكانه المفضل ومأواه الى الجمال والهدوء والسكينة ، ولكن الدنيا تتبدل في عينيه ! •• الأشجار الخضراء تتحول الى هشيم ! •• والأوراق في الورود لا تتنفس ! •• يجلس على المقعد الحجرى في غير ألفة ، رأسه ثقيل •• ثقيل !

يهطل المطر •• فتهرب أمواج الذكريات وترتعش الرؤيا •• وما زالت كلمات والده تطن كالرعد في أذنيه :

— الى متى تظل هكذا ! • أبلها ؟ • الناس تسخر منك •• ومنا •• لماذا تتورط في معاملات مالية •• فتضمن أفاقا يلعب بالأمانات ؟ • أتعرف كم كلفني تهورك ؟

هه ٠٠ لا تسألنى ؟ ٠٠ تصمت ولا تنظر الى ؟ هه ٠٠ أنعرف يا فالح العصر والأوان ٠٠ لو لم أدفع ٠٠ كنت أنت فى السجن ٠٠ نعم السجن يا غبى !

شلال من الأسئلة ٠٠ مثل المطر الجهنمى ٠٠٠ صفعات الألفاظ ٠٠ عصبية الأحرف كان الأمر فوق مستوى المناقشة ٠٠ ما كان أمامه الا أن يلوذ بالصمت ٠

والده يستطرد بعد حالة هدوء نسبى :

ـ لست صغيرا ٠٠ ولا ينبغى أن تكون الغر الذى يستغله الناس ! ٠٠ اكبر يا ولد ٠٠ اكبر ! ٠٠ الحياة قصيرة ٠٠ لم يعد لدى جهد ٠٠ ولا تدرى كم احتياجى الى رجل رزين أعتمد عليه فى ادارة أعمالى ٠

نظر الى والده الطيب ٠٠ وجد مسحة حزن على وجهه ، واحس قلبه ينقبض خشى عليه الانهيار ٠٠ أراد أن يخفف عنه ٠

ـ أبى ٠٠ ما كنت أعرف أن صديقى ٠٠ سوف يورطنى فى مبلغ ضخم كهذا ٠٠ كان حافزى الحب ٠٠ ونجدة صديق وقت ضيق ٠٠

وكأنه دون أن يدرى ٠٠ ألقى الزيت فوق النار ٠٠ صاح الأب :

ـ ماذا تقول ؟ ٠٠ التعاون ٠٠ الحب ٠٠ الصداقة ٠٠ أشياء نقولها للأطفال ٠٠ يرددها أهل النهب المنظم ٠٠ انها سم الميلودراما فى التلفاز والسينما ٠٠ والأدب الرومانسى المريض ٠٠٠ ما أبشع حكايات العواجيز للصغار لجلب النعاس الى جفونهم كل مساء !

قال الشاب على استحياء : أيعنى ·· موقفا سيئا ·· ان الدنيا انتهت ·· أغلطتى انى أهتم بالغير ·· ألا يمكن اعتبار ما حدث نشازا ··

قال الأب وقد عاودته نوبة الانفعال : انك لم تخسر المال فى تجارة ·· بل ضاع فى الهواء ··· لقد ضمنت لصا ·· واحتضنت أفعى ! ··

تنهد الأب وقال : التجارة عالم مثير ·· غزو ·· ليتك خسرت المال فى صفقة أو مغامرة ·· أو نزهة ·· انك تهدر الخير فى بالوعة نجسه ! ·· والمصيبة يتم ذلك تحت شعار البر !

قال الابن لنفسه وهو يندب حظه للوقوف أمام والده فى موقف المنهزم : الطعنة لا تهم فى المال ·· بل تهم فى ضربة الصديق الخائن !

وجد نفسه يهرب الى الطريق ·· هرب من زحام الأفكار الى زحام البشر ! ·· وجد السيدات فرغن توا من أكل الذبائح ·· فالدماء لازالت على شفاههن ·· وبجوارهن ·· رجال ·· أخفوا المدى تحت ثيابهم الأنيقة ·· والكل يتبادل ابتسامات صناعية حتى دكان اللعب ·· معلقة فيه عشرات الأقنعة التى تخرج له لسانها ·· وتحرك الحواجب . حملق فى أحد الأقنعة ، وجده قرد ·· يصق القناع فى وجهه !

أجهده المسير . ساعات يدور فى شوارع المدينة ·· يبحث عن راحة مفقودة ·· كم يحتاج النوم ليريح عقله المكدود ! ·· عقله الباهت يرتعش أمام الأقنعة الكاذبة ·· والفاظ العنف التى تمحق العقل بألف دور تمثيلى !

انعطف الى شارع مزدحم بالسيارات والبشر ، سيرك ضخم ··

التعب يغزوه ٠٠ كم يحتاج الى فراش هادىء نظيف ٠٠ وليتكوم مع همومه !

أبصر شيخا ضريرا يريد عبور الطريق المكتظ بالسيارات المسرعة ٠٠ والشيخ يقف حائرا ٠٠ يريد من يأخذ به ليعبر الطريق ! ٠٠ وجد نفسه مدفوعا لمساعدته . اقترب منه ٠٠ وأمسك بيد الضرير وحياه ٠

قال له الضرير : بارك الله فيك يابنى ٠٠ لقد انتظرت طويلا ٠٠ ولكن يبدو أن السيارات لا تحترم أمثالنا !

وشم الضرير رائحة عطر زكية تفوح فى أعطاف الشاب ٠٠ فراح الضرير يثنى عليه مساعدته للضعفاء والمساكين ٠٠ وانه لابد من أصل طيب ٠٠ وعرج على سؤاله عن نفسه ٠

ـ اسمى محمد الأسمر ٠٠

ـ انت بن الأسمر ٠٠ التاجر المعروف ٠٠ أهلا بك ٠٠ وهل تشتغل مع والدك يا محمد ؟

ـ أعاونه ٠ وأستمر فى الدراسة ٠٠

ـ التجارة أفضل ٠٠ والدراسة آخرها التجارة ٠

ـ يعنى ! ٠ وان كنت أكره روح التجارة ٠٠ ان كن لها روح !

ـ أكون عطلتك عن مشوارك ٠

ـ أنت فى طريقى ٠٠ فأنا ذاهب لتسديد ثمن بضاعة ٠٠

ـ ولماذا لا تسدد عن طريق البنك والشيكات ٠

ـ الرجل يريد المبلغ نقدا ٠٠ وهو خمسة آلاف جنيه ٠٠

أنت سياره مسرعة كالسهم ·· وأصبح الطريق مفتوحا ·· وصلا الى الرصيف المقابل ·· وهنا استدار الشيخ الضرير وأمسك بكل قوة وقسوة بتلابيب الشاب ·· ماتت أصابع الشيخ على ملابس الشـــاب ، وتعلق بعنقه وظل يصرخ فى الناس : الحقونى ·· أدركونى ·· هذا الشاب سرقنى ·· سلبنى المال واستغل عاهتى وضعفى ·· كادت الأرض تميد بالشاب افترسه الذهول والعجب ·· حزن ساحق مخرب يغتاله ·· كيف حدث هذا ؟

صاح الشاب وهو يلتقط أنفاسه من الدهشة : شيء عجيب ! أنا سرقتك !

ما هذا الكلام أيها المخرف التعس آ

قال العجوز وهو يتصنع ·

ـ أخذ نقودى ! خمســة آلاف من الجنيهات نقدا وعدا ·· استعنت به فى عبورى الطريق ·· واســتغل احتياجى فى عــد النقود ·· يا عالم ·· يا ناس ·· يريد الفرار بنقودى وشـــقاء عمرى ·· وعاد يصرخ ·· الا توجد الرحمة فى قلوبكم ! هل قلوبكم حجارة ؟ ·· أنا بائس ·· ضرير ·· مسكين ··

صاح أحد المارة وقد رق قلبــه للشيخ ، ويهفو قلبه لدور الشرطى بل والقاضى ··

ـ كم قلت عن النقود ·· كم عددها ؟

ـ خمسة آلاف بالتمام والكمال !

أشار الرجل بعنف الى الشاب ·· فتشوا ما معه من المال ·· وتأكدوا من صدق كلام الضرير ··

فتحوا الحقيبة ٠٠ وعدوا ما فيها وجد أن المبلغ كما قال ٠٠ فانقض الناس وأوسعوا الشاب ضربا ، وتكاثروا عليه وهو لا يدرى مما حوله شيئا !

وما زالت تستبد به الحيرة ٠ أخذته الحدة كل مأخذ ٠٠ فتبعثرت ألفاظه واختلط منطقه ، وكلما حاول توضيح موقفه أوسعوه ضربا وشتما وركلا !

وكلما قارنوا بينه وبين ضعف الشيخ الضرير الذى أخذ يلطم ويبكى ويستغيث وراح يتباكى على الضعف والعمى ٠٠ فالهب مشاعر الناس ٠٠ وانقضوا على الشاب بعنف أكثر ٠

لم يجد الشاب بدا من الفرار بجلده والناس تلاحقه بين الحارات فى حماس لصنع العدل ٠٠ اقترب أحدهم من الضرير وربت على ظهره وقال له ، كلنا معك ٠٠ وأنا أشهد معك ! ٠٠ وراح يضرب كفا بكف ويقول ٠٠ بلد متوحشة ، لا ترحم العاجز المسن ، بلد من غير ايمان ٠٠ انا لله وانا اليه راجعون !

زادت الجلبة ٠٠٠ انقض الليل على النهار ٠٠ فتكاثفت الظلمة ٠٠ بينما الشاب المظلوم راح يجرى ويجرى ٠٠ وأفلت من مطارديه ٠٠ وصل الى بيته ٠٠ يتحصن بالليل والظلام والوحدة ٠٠ ارتمى على السرير ٠٠ راح يبكى ويبكى ٠٠ ويختبىء تحت الوسادة التى تحولت الى كبد شيطان !

• القيلولة •

سـياط من النـار تلهب الجسم .. الشمس تبدو قريبة أكثر مما ينبغى ، لدرجـة أن الحمار الأعجف بدأ يئن من حمـل المرأة .. رغم ضآلة جسمها . فهى قليلة فى كل شىء .. يرتمى ظلها المرتعش على الأرض المحصبة . لفحات من الهـواء السـاخن تداعب غطاء رأسها الأسود .. وتحته شعر فاحم لم يعرف الشيب .. تطل الى الطريق من عينين سوداوين ويتوجه للأمام أنف دقيق يزين وجها كوجه الطفل .. تبدو بجسمها الأبيض طويلة فى اعتدال .. جسمها يرفض أى زيادة .. ربما بسبب الكد والمعاناة وربما سوء التغذية .. لكنها حتى وقت قريب .. كانت رائعة القرية .. هجم المرض فجأة .. استشعرت الخطر الماحق .. قالت لابنهـا الوحيد اليتيم الأب .

ـ يا ولدى .. هيا بنـا الى الطبيب .. أننى أحس بالوهن الشديد .. وربما لا أستطيع الصمود من أجلك أكثر من ذلك .

هاهو الولد يمشى أمامها .. قامته لا ترتفع عن الأرض أكثر من متر . ورث ملامح أمه الجميلة وبعض خصال ألاب .. يرتدى

جلبابا رماديا قديما يجر الحمار ·· ولعله يرجوه أن يمشي بأمه ·· لاتطاوعه نفسه على ضربه فهو الصديق ·· وليس دابة كما يظن الناس ·

ظل يحث الحمار على السرعة بلا جدوى ·· الشمس تخترق الأشياء بقوة ·· مساحات ناصعة البياض ·· كالمرض ·· يتحول الثوب المبلل بالعرق الى كسوة من الشوك ·

دخلت قطعة زجاج مكسور فى قدم الصبى ·· توقف ريثما ينتزعها ·· وراح يلحق بالحمار الذى ابتعد مسافة قليلة ·· يمشى على جرحه النازف · يطالع الصبى المساحات الهاربة فى الجفاف على جانب الطريق ·· يلتفت الى أمه ·· وقعت عيناه على خيط الدم الأحمر القانى ·· يتسرب منها على ظهر الحمار ·· ترتجف نفسه ·· شريط الدم يتدحرج ببطىء الى أسفل بطن الحمار ·· رفع بصره الى وجه أمه ·· وجدها تتألم ·· العرق يغرق وجهها ·· كأنها تترنح ·· تتماسك ·· تجز على أسنانها ·· يضع منديلا فى فمها ·· تعض المنديل حتى لاتصرخ ·

هبت نسمة هواء ·· كالرحمة ·· أنعشت النفس قليلا ·· الله رحيم بعباده وأبصرت الأشجار حولها ·· شاحبة على وشك الموت قهرا ·

سرحت المرأة فى الماضى ·· كمن يلعق العسل من فوق عصن مر ·· عشرة أعوام مضت على الزواج ·· كان عطوفا ·· كبير العقل والقلب ·· قصير العمر ! ·· لم تتزوج بعده خوفا على صغيرها من زوج الأم ! « ما أقصر دنيا الحنان » ·· سرب من الحمام يحوم حول بيت من الطين · تتذكره ·· كالطيف العابر ·· لقد مات بدون مرض ! « وهل يحتاج الموت لمبرر ؟ ؟ وطوقتها الوحدة ··

الحزن يمتد ويستطيل ·· والجزع يضيع الفرح · نظرت الى قرية على جانبها ·· ثمة بيوت رمادية ·· أطفـــال يعشش الذباب فى عيونهم ·· (ولابد من ذلك ·· لاتدرى لماذا ؟) ·· تتذكر قريتها حيث الحيوانات تعاشر البشر والأطفال مع الطيور ·· الكل فى وحدة واحدة ·· (رغم فقرك يا قريتى ·· فاننى أحبك) ·· تتذكر الملذات البسيطة ·· والليالى الرائعة حين يطـــل القمر ·· وعقول الصغار تسبح فى أساطير الجن والعفاريت وحكايات الشـــاطر حسن ·· وصوت الجدة يقلد شهرزاد ·

ربتت على رقبة الحمار ·· تلاطفه ·· تكلمه : « كنت صديقى الحميم ! ·· من كان يصادق أرملة فقيرة مع طفلها ·· غيرك ·· أنت صديق مخلص لاتطمع الا فيما يقيم الأود ·

وتلتقط أيام الفرح من غياهب الأيام ·· فترى العرس ·· تسمع الطبل يعلو كل أنواع الأصوات ·· ثمة أغنية (على الزراعية ·· يارب أقابل حبيبى) ·· لاتدرى ما سر تعلقها برائحة الجوافة والبرتقـــال ·

« آه أيها الحب ·· أيها الساحر » ··

الحمار يجر أقدامه النحيلة فوق تراب هش ·· الشمس تقلى الأجسام « آه أيها القلب الكسير » ·

رأت جبانة ·· صمت رهيب ·· شـــجرة مسكينة تئن من العطش · رأت أن تواسى نفسها ·· قالت للصغير : باقى مسافة صغيرة ·· أصبر يا ولدى ·· الصبر من الايمان ·

تحجرت دمعة فى مقله الصبى الذى يخفى جرحه عن أمه : انشاء الله ·· سوف نصل ·

أمسكت المرأة بطنها حسرة وألما .. كأنما السكاكين تمزق الأحشاء . كأنما يد رهيبة تقبض عليها .. ثمة شيء دافيء تحس به .. الشمس ترنو الى الأرض .. تقترب .. تلعق الأرض بوهج لافح .. الأرض تحترق تحت قدمي الصغير .. كأنه يمشى فوق الجمر .. وضعت المرأة يدها على رأسها .. تمنع نفسها من الترنح « يا الهى .. رأسى ساخن .. قلبى مضخة متعبة .. كيف أقاوم ؟ » .

أيها الجسم الحى تجلد .. !

شاهد الصبى مبانى مترفعة .. صاح فى أمه : اقتربنا يا أماه .

لم تنتش .. بل لم تسمعه .. تشعر بالدوار .. أعمدة وأسلاك ترتفع الى أعلى مثل ثعابين ملوية الى السماء .. صناديق رمادية يدخلها النمل .. عشنش صفيح .. قاذورات .. أكوام قمامة يعلوها ذباب .. صخب الناس .. ثرثرة رديئة .. قرقعة عربات « الكارو » .. يأتى الناس من كل حدب وصوب .. يضطرب سماع الأذن .. ترتعش الرؤيا .

أبصرهما عربجى .. رث الهيئة .. متين البنية .. ملتحى .. وسألهما عن وجهتهما بعد أن أنزل المرأة ـ بحياء شديد ـ من فوق الحمار الأعجف .. وربط الحمار خلف العربة .. حاولت المرأة الجلوس الى جانب الصبى فوق العربة .. لم تستطع أرغم الألم الحباء على التراجع .. التفت كالدودة حول نفسها .. نامت على جانبها .. تتأوه ..

وراحت العربة تهتز بقسوة .. والعجلات تقرقش الحصى والدبش .. حتى وصلوا الى (وحدة علاجية) .

حازت العربة جدار البناية ·· نزل العربجي واتجه كالسهم الى الداخل ·· يسأل عن « مسؤول » ·· وجد التمرجي جالسا على كرسي ·· يشرب الشاى ·· ويقرأ حظه اليومى ·· ويعطى بين الحين والآخر التعليمات ـ بخشونة ـ الى المرضى المكدسين فى الحوش والممرات ·· ولما اشتدت ضجة المرضى صاح فيهم : الذى لايعجبه الانتظار ·· يذهب مع ألف سلامة والباب يفوت جمل ·

قال العربجي وقد اشتد به الغضب لما يراه : من فضلك ·· معى سيدة على وشك الانهيار ·· ومعها غلام صغير مجروح أيضا ·· هيا معى ··

وفى أثناء الحديث وصل الصبى واتجه الى التمرجي يرجوه ان يلحق بأمه رق قلبه للكلام ·· ولمنظر الصبى المتعب ··

نظر التمرجي الى (الحالة) نظرة خبير ·· دونما انفعال ·· راح يتفحص المرأة المبللة كعصفور ·· منكمشة حول نفسها ·· بلا حركة ·

حول التمرجي بصره الى الصبى ·· وتوقف الكلام فى حلقه · فقال الصبى :

ـ أمى نامت تعبا ·· ظلت تصرخ طول الليل ·· أهلكنا المشى مسافة طويلة انها نائمة ·· أليس كذلك ·

قال التمرجي وهو يغالب التأثر من كلمات الصبى : نعـــم يا ولدى ·· لقد نامت بعمق هذه المرة ·

لم يفهم الصبى ·· اقترب من أمه يهزها برفق ·· ولأول مرة فى حياته لاترد عليه أمه ·· فيصرخ ·· أمى ·· أمى ··

احتضنه العربجى فى خشوع .. والدمع يترقرق فى عينيه .

كانت الشمس تضرب بسياطها الساخنة .. وبعض الكلاب الضالة . تلصق جفاف حلقها .. وتجرى باجسامها النحيلة باحثة عن ماء نقى وبقعة ظل .

● انتصار الهزيمة ●

- ١ -

صــــوب مسدسه فى شراسة وثبــــات وراح يسقط عشرات الرجال بمنتهى العنف والقسوة والسهولة ! ينفجر الرصاص ·· ينطلق الدخان ينبثق الدم ·· تتصاعد الآهات ·· الأجسام تتمزق ونوافذ الزجاج تتحطم ·

كان حسن بديع الزمان يجلس فى تلذذ وانسجام مع ما يراه على شاشة التلفزيون ·· يتقمص دور البطل ·· يضع مسدسه فى جرابه ·· ويتمنطق بحزام الرصاص ويمضغ العلق ويحدق فى الأبواب ويستعد للتخلص من خصومه فى لحظــات ·· ولا قانون ولا يحزنون !

صرخ فى خـــادمه : انت يا حيـــــوان ·· ناديت عليك خمس مرات ·· ألم تسمعنى يا بغل !

ارتعش الخادم وقال بانكسار : أوامرك ··

ــ روح هات علبة سجائر

ارتبك الخادم وقال رغما عنه : الآن !

نظر اليه حسن بديع الزمان : الآن يا حيوان ! وأضاف بسخريته المعهودة ، ان لم يكن لديك مانع ·

رد الخادم : سيدى ·· البقالة الوحيدة فى القرية أغلقت منذ ساعتين رد حسن باستخفاف ·· اذهب للبقال فى بيته واجعله يفتح الدكان بالأمر ·· هيا أغرب عن وجهى ·

خرج الخادم وهو لايدرى ماذا يفعل ·· وتمنى أن يذهب من هذه الدنيا !

لكن حسن بديع الزمان تذكر صديقه اللدود عبد الله ·· فصمم أن يذهب اليه بلا موعد ·· مثله مثل كل سكان القرية ·· لايعرفون خصوصية الوقت ·· فوضع على جسمه البدين ·· الجلباب المكوى واعتمر طاقية مشغولة بالقصب ·· وانطلق كطفل كبير ·

- ٢ -

انكب على كتبه ·· بحماس لا نظير له ·· كان قد انتهى من وضع جدول لمراجعة المواد الدراسية ، أمه تعتنى به كما تعتنى الأم بابنها ·· تحضر له الشطائر ·· تقدم له الشاى بين الحين والآخر ·· والمطلوب منه أن يركز ويجتهد للحصول على مجموع يؤهله للدخول فى كلية تناسب طموحه ··

الهواء يحمل الحرارة ·· « لا أدرى لماذا يضعون الامتحانات فى ذروة شهور الصيف ·· وهم يعلمون اننا بلاد حارة !! » ·

ورغم هطول الليل وموجة الحر .. أقبل عليه ضيف في غير وقت الضيافة .. ظنته الأم جاء ليشارك ابنها المذاكرة .. فزادت في ترحيبه لكنها لم تر الكتب في يده ..

دخل حسن بديع الزمان على صديقه .. فوجد صديقه المرهق من الانهماك في المذاكرة فعلق ..

ـ يا بني كسرت وســـطك في الاســتذكار .. ما الفائدة ! أجهدت نور عينك .. (يانور العين) . ما الفائدة ؟ .

نظر عبد الله تجاه زميله المستهتر والذى ينجح كل عام بطريقة الغش والاتصالات المريبة مع المدرسين ! .. صـــورة يمقتها .. فحسن ابن أعيان .. ولكن في الشهادات العامة يكرم المرء أو يهان .. ومن اجتهد وجـــد .. وأكيد أن الأيام ســوف تثبت صدق تصوراته ..

وكانما حسن يقرأ ما يدور في رأس عبد الله .. اذ قال حسن بديع الزمان : دع عنك هذه التخيلات العقيمة ! كل شيء في بلادنا (هات وخذ) .. بل وفي العالم كله .. ان قانون شيلني وأشيلك .. هو قانون الوجود .

فقال عبد الله متمسكا بهدوء نفسه : الا في العلم .. يحتاج الى الجهد والعرق والنضـــال .. وليس بالاحتيال .. أما قانون الفهلوة والغش .. وهات وخذ .. فهذا شغل سماسرة وليس طلاب علم .. وهذه لغة سوق الخضار .. وعموما الشهادات شيء والعلم الحقيقي شيء آخر .. والعالم المتقدم يمنح الأبناء مايستحقون من الشهادات .. بقدر تحصيلهم الحقيقي من العلم .

صفق حسن بديع الزمان .. وأضاف .. الشهادات بالفعل موضوعة هنيا .. ولا يحتاج منك الكد والنصب ..

ـ كيف يا فالح العصر والأوان ؟ • اسمع •• أما كان الافضل لنا أن نراجع كلمة تفيدنا •• ولتجلس معى جلسة عمل جاد •• هيا ولندع ثرثرة التجار ولغة السوق السوداء •

رتب حسن بديع الزمان على كتف صاحبه وقال :

ـمازلت صغيرا على كلامى •

نظر عبد الله الى صديقه البدين •• البادية عليه آثار النعمة وقال بحسم وجرأة : اذا كنت تنوى المذاكرة معى فمرحبا •• واذا قاطعه حسن بديع الزمان برفع كفه قائلا : أنا جئت أسدى اليك نصيحة •• وسوف أنجح كل الشلة على حسابى •• مجرد خدمة •• ولا داعى للمذاكرة ووجع الراس !

حملق فيه عبد الله •• « اللهم أخذيك ياشيطان » •• هل يخرج عن أصول الضيافة ويطرده شر طرده !

جاءت الأم بصينية الشاى •• وضعتها على الطاولة الصغيرة •• وابتسمت لهما فى حب •• وانصرفت تدعو لهما بالتوفيق •

قال حسن بديع الزمان وكانه يقرأ خواطره •• أنا ماشى •• ولكنى جئت آخذ رأيك فى موضوع سريع •• مهم •• ومستعجل ! كظم عبد الله غيظه وقال لصديقه : ما هو الموضوع المهم المستعجل والأهم من المذاكرة والمستقبل •

قال حسن بديع الزمان بتؤده : غدا سوف يخطب ابى •

ـ الف الف مبروك

قالها عبد الله ساخرا وبلا مبالاة •• فهو يعلم أن الحاج بديع الزمان رجل ميسر الحال •• من الأعيـــان •• مزواج •• يتزوج ويطلق بنفس السهولة التى يعالج بها حبات المسبحة •• ولا يعرف

عدد أولاده ٠٠ ولا يعرف كم قهر من قلوب نســـاء جميلات ٠٠ فاتنات مطلقات ٠٠ مهملات !

ـ لم تسألنى من هى العروس ؟

ـ هذا شيء يخص والدك ٠٠ ولا يخصنى أنا ٠٠

تأمل حسن بديع الزمان صديقه وقال وعلى فمه ظل ابتسامة خبيثة : انه يذهب غدا ليخطب لى أنا ٠٠ وليس لنفسه !

كرر عبد الله بنفس اللامبالاة نفس الكلمات : ألف ألف مبروك ٠٠ وأضاف هازئا ، روح أعمل فرح وأنس الامتحان ٠٠ روح بلا غم روح ٠٠ ربنا يفتح عليك أكتر وأكثر !

قال حسن بديع الزمان فى ثقل ٠٠ كمن يلقى بحجر كبير على بركة راكدة : أتعرف من هى العروس ٠٠ أنها ليست بعيدة عنكم ٠

ـ عنا ٠٠ لا أدرى من هى ٠٠ وليس عندى اخوات بنات ٠٠ قال دفعة واحدة ٠٠ كالرصاصة : مريم !

كان الاسم وحده شديد التفجير ٠٠ نفذ الى قلبه الألم كما تنفذ الرصاصة الى أعمق أعماق القلب ! ٠٠ نسفت الكلمة الرصاصـــة كل أركان الطمأنينة ٠٠ كاد يصرخ (امشى يابن الكلب) ولكنـــه ابتلع الكلمات ٠٠ فهو ابن ناس ٠٠ ومن قرية تعرف (العيب)!٠٠ وتذكر كلمات أبيه : لو جاء الى دارك عدو قـدم له التحية وأطيب ما عندك ٠٠ فالضيف له الحق أولا :

حاول اخفاء الانفعال والتستر على الجنون ٠٠

ـ ألف مبروك يا حسن

خنجر الكلمة يجـرح حنجرته ٠٠ يخدش فؤاده ٠٠ مخزون الغضب يتحرك للانفجار ٠٠ السواد يغزو قاع النفس ٠٠ يرتفع الى القلب والرأس والعين ٠٠ وسمع صديقـه يضيف بعدوانيـــة
ـ أنا لا أحب مريم ٠٠ ولكن والدى يعتبرها بنت ناس ٠٠ ونحمد الله أن الدين يســـمح لنـــا بالطلاق والجواز مرة أخرى ! يغلى (يا صفيق ٠٠ يا وقح ٠٠ تعرف قيمة مريم بالنسبة لى تعرف أننى أحبها ٠٠ وانها تحبنى ٠٠ أتدرى ما الحب يا ابن الجاموسة أتعرف نبل الحب يا ثور ٠٠ أتعرف عظمة الدين الذى حـــرر الانسان ؟ آه منك يا ابن الأفاعى !) ٠

لكنه همس ـ بكفاح مدرب على ذل السنين ـ : ربنا يتمم بخير وعلى كل حال مريم بنت حلال ومن عائلة طيبة ٠٠ كل شيء قسمة ونصيب ٠

وقال كمن يطفىء النار المشتعلة فى أغواره ، المهم الآن الدراسة فبعد أيام قليلة جدا الامتحانات ٠٠ أما الجواز والأفراح ٠٠ ففى أى وقت ٠٠ النساء أكثر من الهم على القلب ٠٠ فهل نذاكر ؟

ـ لا ٠٠ لم آت للمذاكرة ٠٠ ثم أضاف حسن بديع الزمان بجدية وكما قلت لك النجاح فى جيبى ٠٠ بل سامنح شلة الأنس فرصة النجاح هذا العام ٠٠ نحن نحتفظ بالنظر سليما ٠٠ لنرى الجمال والدنيا ٠٠ وليس لمطالعات الهم والغم ٠٠ والمناهج العقيمة الغريبة ٠٠

قال عبد الله يخفى حسرته ومرارته : لكل مجتهد نصيب !

وانتصب حسن واقفا كالمارد ٠٠ وقال : أنت انسان زكى ٠٠ شعلة نشاط ٠٠ لكنك تبحر فى بحر سذاجة ٠

قال عبد الله وقد فاض الكيل : بالله عليك أتركنى أعمل ·· ربما أتذكر كلمة تنفعنى ·· فانا أفضل النجاح بالجهد عن النجاح بدون جهد ·· لمعت عينا حسن بديع الزمان وقال باسما : سيكون النجاح مسألة مضحكة ·· صدقنى ·· صدقنى ·

وكمن ينهي موقفا ثقيلا قال عبد الله : ربنا يعمل مافيه الخير ·· الحق الحق لا أفهمك ·

خرج حسن بديع الزمان ·· وتنفس صاحبنا الصعداء ·· لكن الألم عاد اليه ·· أصحيح ما يقوله حسن عن النجاح الهدية ؟ أصحيح زواجه من حبيبة العمر مريم ؟ أم أنها حرب نفسية خسسية يشنها عليه الوغد ؟ ·· وفى الوقت القاتل ! وحين رفع كأس الشاى الذى قدمته له أمه ·· وجد فيه مرارة أكثر من أى وقت مضى ·

(٣)

الشمس تتسلق السماء من أفق شديد البعد ·· وخرج وفد من النخبة الكرام لاستقبال كبار رجال الامتحانات ·· وكان رئيس اللجنة ضيفا على بديع الزمان والد حسن ·· وذبحت الذبائح ·· ورصعت المائدة بشتى أصناف الفواكه ·· وتحلت الأطباق بالدسم والمحمر ·· وبين الأصابع الآتية الذاهبة فى حركة مكوكية نشطة ·· تذهب خالية وتعود ممتلئة فى مثلث الأصابع فى مهارة الملقاط ·· وكل الوجوه تتشابه على المائدة ·· الأفواه تمضغ والضروس تطحن والخدود تتورم ·· والعرق يسيل من الجبين ·· وانها لمعركة حقيقية ! ·

وتركوا المائدة ·· كما يترك الجـراد الحقول الخضراء ·· ثم تبودلت الابتسامات البلهاء ·· والحركات التى لا معنى لها ·· ثم كان الهدوء التام المناسب لعمليات الهضم ··

وفى اليوم التالى ·· دخل الطلاب الى لجانهـــم ·· ووزع الملاحظ أوراق الأسئلة بعد توزيعـــه لاوراق الأجوبة البيضـــاء المسطرة فى دفاتر صغيرة ·

دخل فراش اللجنة ·· فيناديه حسن بديع الزمان : ماء أريد ماء ·· عطشان ·· الفول كابس على نفسى !

يأتى الفراش اليه بكأس ماء ·· وفى ثوان تمتد الأصـــابع وتتلاقى ·· ويخـــرج الفراش ليعود بعد نصف ســـاعة ويصيح بطريقة مسرحية : حبر ·· من يحتاج حبر ؟

يناديه حسن بديع الزمان ·· وفى لمح البصر يدس حسن بديع الزمان وريقة (البرشـــام) النموذجى ·· ويلتفت عبد الله فاذا بصديقه ينقل وبهدوء الاجابة وبنظام وعناية ·· وينشغل عبد الله فى الأسئلة ولكنه يرى حسن وقد تحول الى لجنة انقاذ للفرقة ·· حسن يساعد الآخرين كما وعد ·· وتصل الهمسات اليه بالأجوبة الصحيحة ··

يهمس حسن لعبد الله وبثقة مطلقـــة : عبد الله ·· هل تحتاج معونة معى كل شىء ·· أطلب ·

ـ لا أحب الغش ·· وأشكرك ·

يضحك حسن كانه يقول طظ !

حرب نفسية أخرى ·· والغريب الذى يراه عبد الله غريبا بحق هو موقف الملاحظ الذى جلس بعيدا يطـــالع فى جريدة فى صفحة الرياضة ! ·

يتقابل الزملاء بعد الخروج من اللجنة ·· يتحول حسن بديع الزمان الى اسطورة ·· ولاسيما بعد عرضه الأجوبة النموذجية !·· شيء غريب ·· عبد الله ينهار ·· فما فائدة السهر طوال العام ·· ثم يحدث ما يحدث ·· كيف يتساوى السليم والمريض ·· والشجاع والجبان والشريف والخائن وكيف تتساوى الأشياء الغير متساوية ! عشرات الأسئلة النارية تحرقه ·· يتذكر كلمات الأب : من غشنا فليس منا ·· ترى يا أبى لو عشت ورأيت هذه المذبحة ماذا تقول ؟

(٤)

ينزوى عبد الله الى الجدار ·· الصداع يغتال رأسه ·· تسأله أمه ماذا هناك ·· ألم تجاوب على الأسئلة ·· اذن ما داعى الحزن ·· يا ولدى أنت غامض اليوم ··

جاء اليه صديقه اللدود حسن بديع الزمان ·· الشمس تختفى وراء الشفق الملتهب ·· وقال له :

ـ ها ·· ماذا تقول يا حبيب الناس ·· قلت لك لا تتعب حالك (فترة صمت تقيلة بين الكلمات) ·· عندى مفاجأة حقيقية لك غدا ··

ـ هه ·· مفاجأة ·· ما هى ؟ ·

ـ لو قلت ·· لما كانت مفاجأة ·· سترى وتسمع ··

وجاء اليوم التالى ·· وزعت الأسئلة على الطلبة ·· الكل فى حالة نشوى لاتناسب جلال الموقف ·· ورهبة الاختبار كل ما فعلوه ·· كتبوا الأسماء بخط واضح ·· وأرقام الجلوس والمادة ·· ثقة

مطلقة تحركهم ! الكل ينظر الى حسن بديع الزمان الذى تحول الى زعيم بلا منازع • لقد شـاهدوا (كراماته) بالأمس ·· ويعده بمفاجأة المفاجآت ·· ترى هل يتم جميله ؟!

ولكن الملاحظ تغير ! وهذا مالم يعمل حسابه ·· جاء رجل جاد أصلع قصير القامة ·· يفتش فى الأوراق لايسمح بأى حركة ·· يدور فى اللجنة مثل العاصـفة ! ·· يفتش جيوب الطلبـة عن (البرشام) ··

واذا بمكبر الصوت يذيع السؤال الأول ثم الاجـابة عليه وتتكرر الاجابة ·· الملاحظ يضرب رأسه العارية •

ـ أين هذا (الميكرفون) اللعين ؟ أين مكبر الصوت يا عالم يا خلق ·· أين الشرطة ؟؟؟

أجابه زميله بهدوء : انه خارج المدرسة ·· لا دخل لنا به ·· أزعجته اللا مبالاة ·· العالم يغلى ·· رد على زميله غاضبا : والله عال ·· أنقف هنا مجرد طراطير ! ·· هل ترضى أن تكون خيال مآته ·· كيف لانبالى يامحترم ؟ •

قال زميله مدعيا البراءة : ما حيلتنا ·· نحن نؤدى واجبنـا فى حدود الممكن •

راح الملاحظ ينفخ : المفروض أن نوقف هذه المهزلة ·· هذه مسخرة نكتة سـخيفة ·· غش علنى لم يسبق أن سمعنا عنه فى تاريخ التعليم فى العالم كله ·· انحلال ·· هذه من علامات الساعة يا للكارثة ·· يا للهول ··

وراح يقفل النوافذ بعصبية ·· وقال لزميله : هيا تحـرك أقفل النوافذ باحكام ·· الشيش والزجاج ·· باحكام هيا ·· هيا

.. صاح حسن عبد البديع : الدنيا حر .. لايوجد مكيف أو مروحة هذا سجن .

ـ أسكت يا طالب !

ولكن حجرا قذف الزجاج من الخارج بعد أن كسر الشيش الخشب .. لا فائدة من غلق النوافذ ..

وتفوق الواقع عن الخيـــال .. وقال عبد الله وقد ابتلعته الدهشة : فعلا مفاجأة المفاجآت ..

قال حسن بديع الزمان بعينيه : ألم أقل لكم !

وراحوا يسجلون الاجابة المعادة .. من مكبر الصوت بمنتهى البساطة والثقة بالنفس .. والامعان فى تزويق صفحات الاجابة .

كاد عبد الله أن يبكى ولكن الدهشة أكبر منـــه .. ويتذكر الملاحظ المنهار من الانفعال .. يسب ويلعن ويشتم باشنع الألفاظ وقال الملاحظ للطلبة .. أخيرا : أكتبوا .. أكتبوا .. هذا الاختبار سيعاد مرة أخرى .. سوف أتصل بالعاصمة .. بل سأبلغ سيادة الوزير .. لا .. هذه مسرحية تافهة لايمكن السكوت عليها .. والله العظيم لن أسكت أو أهدأ حتى يتم التحقيق فى الأمر برمته .. هذه بلد العجايب .. أين الشرطة ؟ .. أين المحافظ أين الوزير ؟.. أين ضمير الناس ؟ . أين الدين يا شعب !

وفى المساء .. سمع عبد الله أن الملاحظ الساخط دهمتـه سيارة .. وانتهى التحقيق (السريع جدا) .. أن الفاعل مجهول ! وضاع الرجل ..

وســـمع التعليق الأسـخف من كل شر قال أحـد الطلبة : المرحوم غلطـــان ! .. كان ينبغى أن يسكت .. العين لاتعلو على

الحاجب ما فائدة فرد أعزل فى مجموع ·· وأضاف بسخرية لا ارادة أمام الشعب !

ـ رد آخر بحكمة : ليته فعل مثل زميله الذى أخذ (الظرف) وفيه راتب عشر سنوات خدمة فى الوزارة ! ·· أما زال هنـــاك أغبيـــاء !

ورد ثالث : مغفل ·· ودفع الثمن ·· راح (فطيس) !

ـ رد رابع : كفوا ·· الكلام خطـر ·· الرجـل له أهل ·· والحيطان لها آذان ·· هس ·· هس ··

الدمعـــة تتحجر فى عين عبد الله ·· الحسرة تأكل حشاشـة قلبه أسودت الدنيا فى وجهه ·· خرج من داره ·· سألته أمه ·

ـ غدا آخر يوم فى الامتحانات · أليس كذلك ؟ ·

ـ نعم يا أمى ·· اليوم الأخير !

ـ أصحيح ما سمعنا ·· أن الاجابة كانت من مكبرات الصوت

ـ للأسف صحيح !

نظرت اليه السيدة الكبيرة : هكذا الأمر اذن ·· لقد فهمت حزنك يا ولدى ·· أبشـع الظلم أن يستوى الرفيع والوضيع ·

ـ عن اذنـك يـا أمى ·· أريـد التمشـية قليـلا ·· فصدرى ضيق ··

قال لنفسه : قتلوا الرجل الشريف الذى قال لا ! وأخذوا منى حبيبتى مريم ·· وذبحوا جهد المجتهد ·· أى قرية ظالمة أنت! ومن تظلمين ؟ ·· تالله لسنا فى مستوى القرود !

وسمع من بعيد صوت أغان ·· الغنـاء يصعد من دار مريم يقولون انه الفرح ··

آه الفرح ·· الفرح ·· اقترب عبد الله فى عمق الليل ·· فوجد السيارات تحول الغنم للنحر ·· والبطيخ فى حجم الفيل ·· وأطنان الفاكهة لقد أقسم والد حسن بديع الزمان أن يكون الفرح من أكبر أفراح الناحية فى هذا القرن !·

الأنوار تزغرد فى العيون ·· البيوت تضحك بالأعلام الملونة · أصوات النساء كالصرخات ·· يغنين أغانى غبية !

وجد عبد الله نفسه يتجه الى منزل الشيخ عبد الصبور ·· انه شيخ الجامع الوحيد فى القرية ·· ذهب يحكى له عن كآبته ·· طرق الباب ·· فتح الشيخ الذى كان على أهبة الاستعداد للخروج ·

قال له : هل كنت تنوى الخروج ياسيدنا ؟

قال الشيخ مبتسما : كما تـرى ·· أنـا ذاهب لمنزل الحاج بديع الزمان ·· وأضاف بفخر واعتزاز انه دعانى بنفســه للفرح ألا تعرف انه يعقد قران ابنـــه حسن ؟ ·· زميلك ·· ألم يدعوك يا عبد لله ؟

ـ انهم فعلوا ·· فكل شىء هنا يتم حسب الأصول !

ـ اذن جئت لنذهب سويا ·

ـ لا ·· جئت لشىء آخر ·· ولكن لنؤجله ·· وعندى أنا الآخـــر مشاغلى ·· وأراد أن يبرر انسحابه وقرفه من الرجـــل فقال : غدا امتحان ·· ولابد للمذاكرة من جهد وتركيز ··

قال الشيخ بطريقة (أتوماتيكية) لكل مجتهد نصيب ·

وأراد الشيخ بسؤال عابر يجمل به اللقاء .. بعد الشهادة .. ماذا تفعل يا عبد الله .. العمل أم الجامعة .

(أهاجر الى أبعد نقطة فى الكون .. لكن أين أبعد نقطة عن حقارة البشر ! أيوجد مكان مناسب !) .

قال عبد الله : أنجح أولا .. وربنا يسهل بعد ذلك .. فكل شيء قسمة ونصيب .. وأضاف « العبد فى تفكير والرب فى تدبير » وخرج من دار الشيخ أكثر غما .. فوجـــد الرياح تئن وتعصف بالغصون الهزيلة .. وأمسك بحصاة وألقى بها فى الترعة الساكنة .. وسرعان ما ارتعشت عشرات الدوائـر .. لكن صفحة الميـــاه راحت تصمت كجزء من القرية النائمة فى حضن الليل .

● الهروب الى المصيدة ●

جلس عارى القدمين على البلاط العارى المبتل بالمـاء ·· رأسه مشغول بألف سؤال وسؤال ·· من يرفض حياة النور ؟ من يرفض النقاء والطهارة ؟ سوى يدعى الجميع انهم عشاق النور والطهارة والحب ! اذن كيف تكومت أنواع القمامة داخل البيوت وخارجها فى الحارت والأزقة والشوارع الخافتــه ؟ كيف تسربت القذارة الى القلوب ؟ · وكيف اعتلت الأوساخ نبض القلوب الشابة ؟ ·· ولماذا هو هنا الآن ؟

أتت موجات الأتربة العالية ·· والغريب انهم فرحوا بها ·· وتراشقت الكلمات والآذان ·· وتكررت الاسطوانات المشروخة حول آمال مستحيلة ! ·· المهم انه وصل الى هنا · لم تشفع له سلبيته ·· واختياره لمنطقة الظل ·· الزنزانة السوداء آخر المشوار ·· فى قاع الليل الأبدى ·· وما أتعس أن يتحول رجل الى رقم !

أسند رأسه المشحون بالأسئلة الى الجدار المتســـخ بالكلمات والتراب والبق الذى حفر لنفسه شوارع ومسارات !

لا أعرف كيف كانت البداية .. ربما كانت بسبب زيارة لانسان مريض .. مجرد جار له حقوق الجار .. ليس له معه أى صداقة حميمة .. وبالصدفة التقى عنده بمجموعة من الشباب المتحمس .. ثمة مناقشات حول متاعب الناس .. وتخيل لحلول أعجبه الكلام .. وان لم يشارك الا يهز الرأس ! .. على كل حال .. تعرف اليهم أكثر فى السجن .. وتأكد له انهم أصحاب أوهام .. أو مجرد ضحايا لتجار الكلام .

الألم يقلق راحة الجسد .. يذكره باستمرار بالتعذيب الوحشى .. ابتداء من خلع الملابس والضرب بالسياط على الأماكن الحساسة .. أو لعبة الدش الساخن والبارد .. والبخار لدرجة سلق الجلد .. الى خلع الأظافر والنفخ تحت الجلد !

وتبحر صرخاته الساخنة فى تضاعيف الليل البهيم .. أعماقه الملتهبة تذهب فى صقيع المجهول ..

كانوا يسحبونه الى غرفة كبيرة .. بها أدوات شيب الوليد .. فى كل مرة استجواب جديد .. ثم انكار وتعذيب .. وألم عظيم .. ثم غيبوبة مريحة .. ثم مزيد من الألم ! ثم يفيق على ألم مبرح .. جديد متجدد مع كل جرح عميق !

والغريب أن العذاب بدأ يذوب فى ذكريات عجيبة .. مختلطة ! .. يتذكر - مثلا - والده الأم .. صاحب الدكان الصغير لبيع الأقمشة الرخيصة .. وأمه .. تلك السيدة الطيبة الدؤوب .. تعمل منذ الفجر الى مابعد العشاء .. تخدم الصغير والكبير !

دنيا صغيرة .. آمنة .. مؤمنة .. لم تصدق الغدر .. وفجأة .. يأتى الى هنا .. الى جهنم الدنيا .. يستجوبونه كل يوم ..

ويطرحون الأسئلة المعقدة ! ·· أهو رجل بكل هذه الخطورة دون أن يدرى !

كان يتعجب من الذكريات المريرة التي تتداعى !· أهناك فائدة من دخان أيامه ؟ ·· لماذا الاجترار ! ·· الا يكف عن عملية التذكر ! ·· وكيف ينسى ؟

وكل ما أصابه في الصميم ·· شهادات الجيران والمعارف ضده ·· كلها تجديف وكذب وتلفيق ؟ ·· لماذا يشهدون بغير الحقيقة ؟ ·· لماذا الكذب ! ·· أم انها شهادات زور مثل وضعه هنا ؟ ·· انه محاصر بكل ألوان الأحقاد ·· وممن ؟ من بشر مد لهم يد الحب والحنان والعطف ! · لماذا ينقضون عليه بلا رحمة ! تصفعه الكوابيس ·· تجلده الرؤى ·· ينهال الظلام على عقله المظلوم !

وفجأة حدث تحول كبير ! ·· تغير الطاقم من حوله ·· يعامل من العساكر وصف الضباط والضباط معاملة غاية فى الاحترام والكرم !·· فجأة ·· تلاشى الاستجواب والتعذيب اليومى ·· وتوقف طرح الأسئلة البغيضة ! ·· هذا فى وقت انكسرت فيه كل عناصر المقاومة داخله ! ·· لقد قال لهم : أنا على استعداد تام للاعتراف بكل شيء ، والتسجيل بكل أشكاله ·· أقول ما ترون انه الأفضل ·· وأطلب منكم خدمة أن أموت ·· فلا معنى لحياتى بعد الآن !··

بكى يومها بكاء مرا ·· فمن انتظهر منهم كلمة العدل ·· أشهروا الخيانة ! ·· وما أبشع أن يتحول الجار الى جاسوس ·· الأخ الى جلاد ! ·

استدعاه الضابط الى مكتبه ·· فمشى اليه خائر القوى ·· طلب له السجائر والقهوة ·· وسمع الضابط يقول وهو لا يصدق ما يسمع : أعرف أنك انسان شريف ·· نظيف لاتعرف التآمر ··

انتفض ·· لايدرى ماذا يقول للضابط ·· كأنه يحلم ·· همس له ·· اذن لماذا أنا هنا ؟ قال الضابط وهو يؤكد كل حرف من الحروف التى ينطقها ··

ـ اسمع ·· ما قلته لك ·· رأى شخصى ·· وأنا هنا ضمن مجموعة صغيرة ·· تؤمن بالعدل والانسانية ·· وسوف نتصرف بما يرضى الله ·

وحينما انصرف من أمام الضابط ·· يفترسه الذهول ·· راح يراجع كل حرف سمعه كل كلمة ·· وراح يراجع كل كلمة وكل حرف من جديد ؟ ·· آه ·· هل يتبعون معه أسلوبا جديدا ؟

وتكرر لقاء السجين بالضابط الهمام ·· وتكرر الكرم ·· وبعض الكلمات الهامسة كأنما جاء الضابط ليقلبه فى النار البطيئة ·· فيلوذ السجين بالصمت ·· وربما يهز رأسه بلا معنى ·· يسمع ويسمع ·· لسانه ثقيل ·· حتى قال له الضابط ·

ـ أراك تهز راسك ·· ولا تعطينى رأيك ؟ ·· يبدو أنك فقدت ثقتك بكل انسان ·· ولكن ·· كل شىء بأوان ·· ربك أراد ألا يطول الله أكبر من هذا ! ·

رد عليه بحذر : ماذا تود أن تقول ؟

ـ ما تود أن تسمعه !

كان فى غـاية التأثر ·· تمنى أن يجثـو على ركبتيـــه ·· يتمنى أن يصرفه من أمامه ويتركه الى ظلام الزنزانة ! · هل يتمنى الخروج للدنيا بعدما حدث ؟ ·· ما قيمة الخروج الى عالم ردىء ·· ينهال عليه كالكابوس ! ·· يبدو أنه ألف هذا العالم الغريب ! عالم المساجين والجبارين ! ·· المساحة تضيق عليه ·· فيرى عناق الغضب والثورة ·· والحنـــان والرفض الرقة والخشـــونة ·· والاستسلام والجنون ؟

انه فى ذروة الاضطراب والقلق والشك الرهيب ·· أقبـــل عليه السجان وقال له هامسا ألا تفكر فى الهرب ؟

ـ رد بجزع : لا

ـ لا تخاف ·· قائد الحرس اليوم ·· له نظرة خاصـــــة بالنسبة لك ·· يتعاطف معك ·

ـ لا أدرى ماذا تقصد

ـ الا تفهم عربى

ـ هذه مشكلتى !

ـ ماذا تقول فى فرصة العمر !

ـ ومن يرفض الخلاص ·

نظر الى الرجل نظرة ارتياب ·· وهو يقـاوم قشعريرة من يتحدث الى شيطان وكانمـــا يقرأ الرجـل افكاره فقـال للسجين الحائر : معذور ·· لك ألف حق ·· لقد كفرت بالحـــرية ·· ويئست من قلوب لاتعرف الحب والرحمة ·

وجد نفسه وقد فاض الكيل ·· فى وقاحة لم يتوقعها ·· وسمع نفسه يقول للسجان : وهل لكم قلوب مثل بقية البشر ؟

حاول أن ينسى هذا الحوار الخبيث وهذا الوجه المتخابث ·· ولكن الفكرة استعرت مثل السرطان ! فعلا لم لا يفكر فى الهرب ؟ ما فائدة العقل ان لم يجد لنا مهربا ·· ولكن يخرج لمن ! ·· هذا اذا عاش ليلامس الحرية ·· مع من يتعامل ؟ ·· هل يواجهه شهود الزور ؟ ·· أم يصافح القتلة الملوثة أيديهم بالدماء الفكرة تتجرثم فى عقله ·· لمس العيون تتسلط عليه ·· تراقبه ·· ترصد حركاته ·· وراحت نفسه ضحية للوساوس والظنون ··

رأسه ساخنة ·· لاسبيل الا للاستسلام للمجهول ·· انه يلعب لعبة خاسرة ·· فهو لايملك حق المناورة ! ·· فماذا يفعل الفأر داخل المصيدة ؟ ولكن ما فائدة الجلوس بين كوامن الشكوك ؟ ··

الصحراء ساكنة لاتفكر معه ·· كل شىء أخرس ·· كل العالم يتآمر عليه ·· ما عاد يثق فى أحد ·· ولم يتعلق بأحد !

رفع رأسه الى النافذة الضيقة ذات القضبان ·· فوجد قطعة من السماء ! غالبه النعاس ·· رأى نفسه طليقا حرا ·· يجرى فى حدائق غناء ·· يهتف قلبه بالفرح ·· عاد الى يقظته وسجنه ·· آه يا حرية ·· لحظة واحدة أفضل من عمر ميت بين أجسام قذرة قميئة ! ··

آلمه جبنه ·· تفكر فى حياته الهامشية السابقة ·· لم يعرف شطحات الفعل ·· ولكن أى بأس فى المحاولة ·· ماذا يخسر العبد اذا حاول ؟ ·· هل يجرب ·· نعم ·· نعم ·· يجرب ·· لم لا ·· الهرب ·· الهرب حتى لو أطلقوا فى ظهره مليون رصاصة ·· حتى لو نهشته الكلاب المتوحشة !

واستدعاه السجان ‥ وعلى وجهه تعبيرات جامدة ‥ مثل لاعبى البوكر وقال له : أنت تتشكك فينا أليس كذلك ؟

ـ من أنتم ؟

ـ نحن مجموعة « الانسانية » وبعد خروجك سوف تعرف عنا الكثير ولكن بشرط ألا تعود للانانية والانطواء .

ابتلع ريقه كمن يعتذر عن فعل مشين وقـال : وهل نفعنى اعتزالى ؟

ـ سنكون فى حاجة لمهاراتك يا دكتـــور ‥ فهل تتعـاون معنـا .

رد ببطء : بكل سعادة وسرور !

ـ اذن اتفقنا ‥ ولكن هل تعرف أين ستذهب بعد تهريبك من هنا ؟

ـ الى بيتى !

ـ لا ‥ بيتـك مراقب ‥ أو سيراقب أكثر بعد اكتشاف هروبك ‥ وسيكون مستهدفا للتفتيش ‥ أليس كذلك ؟

سكت الحارس لحظات وهو يعلم أن الصمت كلام عنيف ‥

سأله السجين : وماذا عن زوجتى

رد السجـان بصوت مظلم : دكتور ! ‥ اسمع ما اقول ـ زوجتك ليستفى بيتك ‥ انها تعمل فى مكان لن يسرك !

ـ ماذا تقول !

ـ ستعرف ذلك بنفسك ‥ ولقد تم غسل مخها وانحرافها .

ـ آه ‥ وماذا عن أولادى

ـ عند جدتهم !

(ماذا يقول الكلب عن زوجتى المناضلـة فى سبيل أشرف حياة ! ·· وماذا عن غسيل المخ هذا ! ·· هكذا الأمر !

دارت رأس السجين ·· يدرس المكان ·· يتفحص الجدران والليل ووجه الحارس الأسود ·· وتطل عليه الحجارة والسلاسل والقهر ! أشياء لاتشاركه نبضه ·· الوساوس تأكل صـدره ·· بدأ القلب يتجول الى طبل صاخب ! ·· وسأل نفسه فى وجل ·· هل يحتاجون كل هذه التمثيلية الرخيصة للتخلص منى ! ·· أنا تحت ايديهم ·· لم يستلمونى بايصال !

عـاد الى مكانه ·· لقنوة كيف يهرب ·· وماذا يسلك ·· غدا يطلب العلاج ويدعى المرض الشديد ·· ويصرخ من الألم ·· ويساعـده طبيب المستشفى ·· وفى الطريق يهرب ·· التنفيـذ قبيل الفجر ! ··

وجاءت ساعة الصفر ·

كل شيء يمضى كما درسه معهم ·· ها هو يصل الى البوابة ·· تطل عليه بناية ضخمة ·· لكن المطاردة تبدأ باصوات الكلاب الشرسة ·· تنطلق خلفه مع ضحكات وحشية ·· يطلق ساقيـه للمريح ·· الرعب يمسك به ·· الكشافات تبهر البصر !

أصبح كمن يختبيء خلف اصبعه ·· يتوارى خلف أكمه ·· انطلق وابل من الرصاص ! شعر يوخز فىجسمه ·· دفء غريب يتسرب اليه ·· تتـداعى صور أمه وزوجته وأولاده ·· يقتربون منه فى غايـة الوضوح ·· يهمس لهم ويأخذهم فى أحضانـه ثم يبتعد عنهم ·· ويبتعدوا عنه ··· يلوح لهم فى أسى ·· أنا على سفر يا أحبـائى وسوف نلتقى ·· فيم الحزن والجزع ؟ ·· الى اللقاء ·

● سيف يشتهى الملب ●

عبيد رجل متعدد الامكانيـــات ·· لكنه بسيط ·· لا يفكر كثيرا ·· ينفذ ما يؤمر به ! يقف على مشارف العقد السادس من عمره ·· استدعاء سيده فلبى النداء بسرعة البرق ·· وها هو امتثل أمامه فى خشوع وأدب ·· ينكس رأسه المشتعل شيبا ··

يجلس أمامه السيد العملاق بوجهه الأحمر ورأسه الضخم الذى ينافســـه كرش يتقدم كتلة عضلية ·· يرسل اليـــه نظرة مباشرة ·· قوية ·· نفاذة ·· يعرف عبيد تمام المعرفة أن وراء هذه النظرة ما وراءها ! ·· فازداد ارتباكه وتندى جبينه بحبات العرق اللؤلؤية ·· بينما ترتعد فرائصه ·· ويهمس لنفسه ·· يالطيف ·· يالطيف ·· بأى وجه استبشر اليوم !

اختصر السيد الصمت وقال فى صوت جهورى : عبيد ·· هل تعرف خطورة ما فعلت ؟ ·· أم لازلت تعبث عند زوجتـــك الجديدة ؟ ·· أما تستحى على وجهك ·· هل خلت البلد من النساء فتتزوج أرملة شم عطرها كل جواب آفاق ! هل جننت يا عبيد ؟

ـ سيدى هل حدث منها أى شىء ؟!

كور السيد قبضته وضرب بها على مكتبه وقال : لا أسمح لك بطرح الأسئلة ·· وما كنت أنتظر حتى يحدث أى شىء · لكن الناس غاية لا تدرك ·· الناس يا عبيد تملك الألسنة ·· وتتكلم فى الخفاء ·· وأنت تعرف ماذا يفعلون فى الليل غير النوم ·

وأشار الرجل بسبابته الى وجهه ·· عبيد ·· ألم تفكر فى مركزك المرموء أنت فى موقع ويحسدك عليه الكبار ·· فكيف هانت عليك نفسك ·· لا تكلمنى عن الاغراء ·· فهذه لهجة الكلاب وهم يلهثون وراء عظمة !

قال عبيد فى ضعف : لكن يا سيدى ·· زواجى منها غير معلن ·· زواج عرفى لم يعلم به أحد الا أربعة أشخاص حضرتك تعرفهم ·· وأعيش معها فى فيللا تبعد أكثر من خمسين كيلو عن المدينة ···

ـ الحيطان لها آذان يا عبيد ·· وانك تذهب اليها كل يوم مثل مجنون يرى اللحم لأول مرة فى حياته !

قال عبيد فى استسلام : أنا تحت أمرك ·

ـ أترك هذه المرأة ·· فورا ·· أو ننفذ فيها حكم الأعداء !

صاح عبيد بجزع ·· لا ·· أرجوك يا سيدى ·· فهى شابة صغيرة ·· جميلة !

وتذكر عبيد كيف التقاها ·· وكيف أثرت فى نفسه شجونها ·· وكاد يبكى حين علم بقصتها ·· وانها ابنة رجل شهم مات دفاعا عن المدينة ·· لكن الغزاه هجموا بكل شراسة وذبحوه أمام زوجته وطفلته ·· فصاحت المرأة تهتف بحياة المدينة وبعظمة زوجها ·· فعالجوها بسكين حاد ·· قطعوا لسانها ومزقوها اربا اربا

أمام الجميع ·· أما الطفلة فحلقوا لها شعرها وحاجبيها وختموا عليها بعلامة مميزة في الكتف ·· صارت من العبيد !

وحين كانت تمشي في الشوارع يخاف منها الصبية لبشاعة منظرها ·· فتبكي ثم كبرت وطال شعرها وطال انكسارها وهي تخدم الغزاة ·· لكنها لم تنس ما حدث ·· وحين تعرف عليها عبيد قالت له :

ــ انت رجل طبيب ·· ولكنك ضعيف مثلي ·· أنت مجرد منفذ لأوامر سيدك سامحني لخشونة ما أقول ·· تطلب مني الزواج ·· فهل تحميني من الناس ؟ · قالها لي وهو يذوب عشقا : أفديك بروحي يا أعز الناس ·· ولكن ليكن زواجنا سرا حتى ارتب أموري ·· سوف أتقاعد عن العمل وأتفرغ لخدمتك أنت بكت ·· ولكنها في النهاية ·· وافقت ! ·· وها هو يقف في الاختبار ·· وعليه أن يجتاز المفازة ! أو المهلكة ! ·· سمع صوت السيد الآمر :

ــ لماذا تتردد فيما نأمرك به ؟ · هذه علامة انحلال ؟

ــ حاضر ·· لا تتردد ولكن ·

ــ بدون لكن أو تعليق أو تسويف ·

ــ أقصد أن أقول ·· انها على وشك الولادة ·

قال السيد بالصوت الجهوري : هذا يجعلني أتعجل الأمر أكثر ·· ويمكن للولد أن يحمل أي اسم ·· نزوجها لأي انسان نثق فيه ·· بتاريخ قديم ·· هذا لأنك تحبها ·· وأضاف في سخرية : تحبها يا شايب يا عايب ·· وهي كالأرنبة سريعة الانجاب · ثم ضحك ضحكة خشنة ·· وأشار بيده حركة استهزاء·

قال عبيد هامسا : لكنه ولدي أنا ‥ وهي أم شريفة !

ـ ومن أين تعلم يا فالح ؟

أسقط في يد عبيد ‥ هل يبت السيد عيونه عليها ؟ ‥ هل المرأة لعوب ‥ تعبث من وراء ظهره ؟ ‥ لا ‥ لا ‥ انها بنت أكابر ‥ وتحبه ‥ وقد ضحت من أجله وقبلت أن تعيش في عمق الصحراء في عزلة تامة ‥

لماذا يقسو عنيه سيده كل هذه القسوة ‥ انه يتذكر سنوات العبودية . لكن هذه أول مرة يشعر بالاهانة الحقيقية ‥ يكفي انه لا يستطيع حماية زوجته ‥ حماية امرأة وثقت به ‥ أم ولده ‥ تلك المسكينة حبيسة الصحراء ! حبيبة الفؤاد وقرة العين ‥ أي قرار يتخذ ‥ الحياة لا قيمة لها .

كأن السيد ينظر اليه ويعرف تماما كل ما يجول بخاطره .

ـ عبيد ‥ أحذرك من المراوغة .

أراد عبيد فتح ثغرة . عفوا سيدى ‥ ما كنت لاناقش معك أمرا ‥ حتى لو طلبت رقبتى ‥ ولكن هل حدث شيء معين ؟

جو الغرفة يزداد برودة ‥ علامات الاستفهام تسبح أمام عبيد ‥ الغموض يلف النافذة والطاولة والستائر ‥ وصوت السيد فيه من النذير ما يجعله يفقد السيطرة على نفسه .

صورة المرأة الجميلة محفورة في فؤاده ‥ وهي تبكي بالأمس ‥ الوحدة والعزلة عن الناس ‥ يتذكر كلماتها : البعد عن الناس جحيم ‥ والالتصاق بهم جحيم وسألته مرة ومرات لماذا لا يعلن حبه لها ويشهر زواجه منها ‥ لا سيما وهي حامل في الشهر التاسع ‥ لماذا لا تكون مثل أي سيدة ‥ مثل أي فلاحة

ان العجائز من أهل القرية المجاورة ينظرون اليها باحترام ويتذكرون والديها ..

كانت تبكى .. وتقول له .. عبيد متى نصبح بشرا ؟

أجابها بكلمات غامضة : غدا يأتى الفرج ! .. لا تستعجلى الأمور ! ..

يتذكر .. حين أخبرته نبأ الحمل .. طار فرحا .. فهذا فوق ما يتمنى .. وراح قلبه يسبح فى نشوة عجيبة .. فذهب واشترى لها . سوارا ذهبيا .. وعقدا من الماس .. وقرطا وخاتما من أغلى المجوهرات وأكثرها دقة وصنعا وقدم لها علبة مليئة بالكنوز .. فطوحتها على طول ذراعها وقالت : ليس هذا ما أريده يا عبيد .. أريد للولد أن يعيش حياته العادية .. بين أم وأب وأخوة وأخوات وأسرة لها علاقات فى وضح النهار ..

ـ غير ممكن .. الآن ..

ـ لماذا .. وهذا أبسط حقوق البشر ؟

ـ الظروف .. لها قوة أكبر منا ! .

ـ تعنى (انه) يمنعنا من حياتنا العادية .. هذا غير معقول وغير مقبول هس ..

ـ اذن نهاجر .. الدنيا واسعة .. لنعش حياتنا .

قال عبيد بضجر : تذهبين بى وبنفسك الى الهلاك .. أصمتى من أجل هذا وأشار الى حملها فى بطنها .

وتلفت حوله .. يخشى العيون .. والآذان فى الحيطان !

لا داعى للثرثرة مع نفسه .. (السيد) يقرأ كل ما يجول

بخاطره .. الجير يسد الحلق .. يشعر بتوقف الزمن .. وأن الظلام يشتد من حوله حتى الشمس لا ترسل الا سوادا .. وان روحه تتلاشى اذا غاب النور .. ضغط (السيد) على زر أحمر فانفتح البـاب عن عملاقين أحدهما يلبس حلة كاملة من اللـون الأسود .. والثاني يرتدى ثوبا أبيض أنظف من الحليب وأشار السيد الى عبيد .. انقضا عليه .. وجد نفسه مقيدا بينهما لا يعرف كيف يفلت منهما .. كان يمكن للسيد أن يأمرهما بموته منذ زمن بعيد .. ولكنه يفضل اللعبة أن تستمر الى حين .. أو لعله الحب العنيف على طريقة القط والفأر .. دخل الى الغرفة عملاق ثالث فى ملابس زرقاء داكنة الزرقة .. وكان معه آلة حديدية توضع حول الرقبة .. اذا ضغط عليها حولت الرقبة الى عشرات القطع .. مثلما تنكسر حبة البندق بين فكى الكسارة ومضـافا الى الطوق الصلب الذى يوضع فى الرقبة .. مسمار يبرز الى الداخل فى اتجاه الحنجرة ويتوغل كلما ضيق العملاق الأزرق دائرة الخناق .. وفى لحظات كان عبيد مثل العصفور الصغير فى الآلة الجهنمية .. وكلما ضغط العملاق الأزرق على رقبة عبيد .. كلما تلاشى وجود العملاقين الأسود والأبيض .. وانسال الدم من رقبته .. أحمر قان .. حتى ارتعش عبيد ارتعاشته الأخيرة كان العملاق الأزرق يعمل فى هدوء .. وسعادة واحتراف .. بينما السيد ينظر فى ابتهاج حقيقى لعملية الموت .

وباختفـاء الروح من جسم عبيد .. اختفى العملاق الأزرق أيضا !

ثم ضغط (السيد) على زر .. فجاء بعض الخدم .. فقال لهم فى صوت آمر :

ـ هيا احملوه ·· ونظفوا المكان منه ومن قذارته ·· أرموه فى الركن المنسى ·

وابتسم فى بهجة وقال لهم : لا بأس بعد ذلك أن تشيدوا له جنازة محترمة ·· فقد كان من أفضل رجالنا ·

ساد المكان ذعر وكآبه ·· صاح فيهم آمرا ·· يحرك سكونهم

ـ هيا هيا يا أوغاد ·· اعملوا ·· فلستم أحرارا فى التوقف !

● الاقلاع عكس الاتجاه ●

المكان مل خلية النحل ·· يحس أنه فى طوفان حقيقى من البشر والأصوات ومكبرات الصـوت ·· صخب مغلف بواجهـات نظيفة ، ومناظر بديعـة صـناعية ·· تطغى لافتات الكمبتوتر ·· الذهن يعمل مع عشرات الأرقام المتغيرة ·· مئات التفاصـيل عن الأوقات بالثوانى والدقائق والساعات ، عواصم لم يرها ·· وانما يقرأ عنها هنا فى اللافتات المعلقة ··

المقاعد مكتظة بالمســافرين ، انحشر هو وأولاده فى زاوية خالية ، زوجته مشغولة بالرضيع الغاضب الباكى ·· فاشترك رغم صغره فى جوقة المطار ! ·· أما الطفلان الآخران ·· وجدا اللعب فى هذا المكان الفسيح الجميل ·· فرصة لا تعوض ·· يغريهما المكان الأوسع من أى بيت فى العـالم باللعب وتتألق فى عنهما الألوان ·

يتابعهما ·· قلبه يرتجف عليهما ·· خشية جرح مفاجىء ·· أو التخبط فى حقائب الآخرين ·· الطفل يذيقه العلقم منذ صغره !

رأسه ثقيل ·· لا يدرى لماذا يشعر بالكآبة تتسرب الى قلبه :

رغم عشقه الى فكرة الطيران ·· لكن جسده ثقيل ثقيل ·· سأل نفسه ·· هل أنا من فصيلة الزواحف ؟

حاول أن يرسم ابتسامة لزوجته المتعبة ·· فوجد الأمر فى غاية السخف ·· ورغم أنه حاول ملاطفة زوجته وهى تعمل فى جد فى ترتيب الحقائب ! وهى تصنف الهدايا داخل أكياس البلاستيك ·· وتكتب أسماء الأقارب ·· هذا لفلان ·· وذاك لعلان ·· وقد بدت الغرفة مثل دكان تاجر الجملة والمفرق !

قال فى نفسه : هل يصدق أحد ·· أن هذه النفايات عصارة كد ثلث عام ·· انها ليست هدايا ·· بل عادات قبيحة استبدت بنا ·· ويبدو أن التحرر منها مسألة مستحيلة !

الرضيع يصرخ كمن مسه جن ·· « هل يبكي من احتياجات عضوية أم يشاركني الهم ؟ ·· أم يريد فرض نفسه على الآخرين »·

شعر بزوجته تعاني التعب ، تحاول أن تبدو أمامه متماسكة ، قوية ، سعيدة ··

فى كل صيف ·· يقفز هذا المكان الى عينيه ·· يذكره برحلة رسمية شبه اجبارية ·· حتى يستمتع بدفع الجزية ! ·· ولكن زوجته تصر على التغير وزيارة الأهل ·· ليتها تعيش معه نقلة العذاب ·· ما أتعس الهروب من سياط الحر والغربة ·· الى سياط المحبة والأواصر ·· وكم يعانى من القبلات الحاقدة ·· والأحضان العدوانية !

أحد المسافرين على مقربة منه ·· معه راديو صغير يذيع نشرة الأخبار من اذاعة لندن ·· المذيعة تقول بصوتها المحايد عن حادث طائرة أمريكية قتل جميع من فيها · أمسك البعض أنفاسه ·· همس أحدهم ·

(لا حول ولا قوة الا بالله) .. ونظر الى أحدهم .. وجده يتحسس حقيبته بحرص شديد .. يبدو أن فيهـــا غلة لا بأس بها .. لمحه الرجل وهو ينظر اليه .. قال فى أسى دون مبرر : الانســـان يا أخى .. يركب الطائرة فيصير هو والحقيبة شيئا واحدا . ثم استطرد : ولكن لابد من السفر تصور سنة كاملة لم أر أولادى .. زمن ردىء .

صوت في داخله يرفض الخوف ، لا سيما خوف هؤلاء .. يخافون الموت ولكنهم يحيون مثل الحشرات !

وسأل نفسه : ماذا سيخسرون بالموت ؟

تحركت الجموع بطريقة فوضوية .. الحقائب ثقيلة .. كأنها محملة بالموتى أو بالآمال الميتة .. ولابد من حمل هذه الجثث الى الميزان !

تأكد له في هـــذه اللحظة انه من ســلالة تتمتع بالعذاب وتستعذبه !

بدأ النشاط الغريب .. الحمى بين المســـافرين .. كلهم غرباء .. يشكلون أغلبية أكثر من موظفى المطار .. ولكن لا شىء يجمعهم .. متفرقين دائما .

فهم فى سباق حول الأمكنة .. وان كان البعض يعمل بروح الفريق !

رأسه ثقيل ، لا يدرى هل من قلة النوم .. أم من كابوس يعيشه ؟

ما هذا النفور العارم الذى يغزو قلبه ؟ .. حاول الخروج من شرنقة الذات .. راح يقلب فى سطور الصحيفة التى اشتراها

لقتل الوقت المقتول سطور عجيبة تطالعه ·· مصرع شخص وجرح اثنين من الطــلاب فى مظاهرات تجتاح الخرطــوم ·· اســتمرار الاعدامات والاعتقالات فى ايران ·· حدة الاشتباكات تتصــاعد فى بيروت ·· وكالات هم وغم ·· راح يقلب الصفحات ·· فشــل عملية البحث عن جثة الجنرال الأمريكى الذى أعلنت منظمة الألوية الحمراء بنبأ اعتقاله !

الدماء تسيل من بين ســـطور الجريدة ·· الحروف مكتوبة بطلقــات الرصــاص صــوت البارود يقص كل شىء ·· وبالأحمر البارز !

·· الصداع المخيف يسحق رأسه ·· طوى الجريدة ·· وجــد الرضيع يريد التغير ·· حمله الى صدره ·· تلفت يمنا ويسارا ·· كأنه يريد الخروج من الصداع ··

وقعت صورة زميل على عينيه ·· وكثيرا ما يقابل المرء زملاء طواهم النسيان ·· الابتسامات ·· المصــافحة ·· القبلات ·· وانطلاق أســئلة بلا معنى ·· ولا تنتظر الرد المدروس : كيف الحال ·· كيف الصحة ·· كيف الأولاد وتمنيات بلهاء بالعافية والسعادة ·

صوت الميكرفون يساهم فى الضوضــاء ·· وها هو يمضغ الحروف ويلوكها ويبصقها مرة انجليزية بلكنة صينية ·· أو عربية بلكنة أمهرية ·

الكل يتابع رقم الرحلة ·

استرخى الأطفال بعد اللعب والتعب ·· غلبهم الارهاق ·· ناموا على المقاعد ··

البعض تحرك وعلم أن الرحلة معطلة لعدة ساعات ·· وكل رأس يفهم السبب على هواه ·· عدم الفهم فى رأى صاحبنا ·· عادة مكتسبة هامة !

وينبغى أن يكون المرء قانعا !

صديقه ·· له أصدقاء ·· يتجمعون حوله ·· كما تتجمع الدبابيس حول المغناطيس اتسع نطاق الدائرة ·· نما حوار كنبات شيطانى ·· تكلموا فى قوانين الجمارك والغلاء ·· وانعطفوا نحو السياسة بذكاء أبله !

أغمض عيناه حتى يراهم جيدا ·· وسأل نفسه كيف ينسحب من سوق الخضار هذا ؟ ·· لديه ألف رغبة عارمة فى الفرار ·· الى أى شىء ·· لا يدرى ! ·· ليس أمامه الا دهاليز الصمت الوافى ·· ينسحب فى كهوف النوم ··

ذهب مع نفسه فى رحلات مع جول فيرن وكامبانيللا ·· ولا بأس من السباحة فى الفضاء على طريقة الهيبز وأهل الباطنية ·

همس لنفسه ·· الدنيا جميلة ·· نعم ·· ولكن — دون أن يدرى ·· قال لا يمكن أن يكون العالم ·· قيئا وسعالا وهستيريا ·· ماذا تفعل الشمس اذن ! هل نغترف اللهب دون النور ؟

فتح عيناه على رؤوس قد أنيعت ·· على شكل حدوة حصان ·· تحلقوا حول وليمة الوقت الضائع ! ·· لا أحد فيهم ·· يعرف فيما يفكر !

قال أحدهم وقد اكتشف صمته المريب ·

— ما بك تحلق فينا ·· ولا تشاركنا ·

قال له ·· رحم الله امرءا قال فغنم أو سكت فسلم ·

ـ الله أكبر ·· الله أكبر ·

وظن أحدهم أن فى الكلام مدحا ·· فتبسم ابتسامة لا معنى لهـا ·· وصـــاح الميكرفون برقم الرحلة ·· قفز أحدهم كطفل صغير ·· أنه رقم رحلتنا نسوا ما كان بينهم ·· لا يهم الحديث فى أى مسألة !

وغلبهم حماس مجنون في طوابير مهرولة ·· وها هى الباصات تقلهم الى حظائر الطائرات ·· للاقلاع نحو (موطنهم) ·

نظر صاحبنا الى قبة السماء ·· فوجدها واسعة ·· واذا بها محيط عجيب ·· عجيب ·

• التمثيلية •

عقدت الدهشة لسانه .. هل يكذب حواسه ؟ ان زميليه في العمل يتفقان على سرقة صاحب المصنع الكبير .. كشف الأمر صدفة ..

قال أحدهما وقد علته صفرة : اشترك معنا .. ولك نصيب يغنيك عن عمل نصف قرن أغبر .

قال ومازالت الدهشة تستبد به : ماذا تقول يا هذا ؟ .. أاسرق معكما .. وتوجه الى الآخر وقال بانفعال شديد : ماذا فعل الرجل بكما ؟! لماذا هذا التصرف السيء ؟

ضحك الآخر وقال : اننا نأخذ القليل القليل من الكثير الكثير .. ألاترى أن عنده تورم مالي يحتاج العلاج السريع ؟

صاحبنا بانزعاج : لكنه يعطينا الأجر .. ويحسن الينا ويجزل العطاء فوق الأجر ..

قال الآخر لزميله : يبدو أن صاحبك كسول ، غبي ، يريد أن يشحذ كل يوم سمكة .. انه يكره الصيد !

نظر صاحبنا الى الرجل البدين الأسمر ·· والى الآخر الطويل في اسراف وكانهما يظهران لعينيه لأول مرة ·· واشاح بيده في رعب وقال : الله فو: الجميع ·· والحرام حرام ·· نكسب بشرف ولا نخسر كل شيء ·· واشار اليهما واستطرد ·· اذا لم ينقذكما الحلال ·· فلا نفع في الحرام ·

قال أحدهما : ماذا تقول عن الفقر ؟ ·· ان المال المكدس عند صاحب المصنع يكفى قبيلة بكاملها ·· الا يوجد لاعدل عندك أى أهميته !

كان صاحبنا يستمع الى حوارهما وترتعد فرائصه ولا يصدق أذنيه !

فقال للرجل : الفقر شر ·· والعدل ليس بالسرقة ·· هناك العمـــل ·· فربمـــا يموت الرجـــل من نقص ماله ولكنه حتما سيموت من هول خيانة أقدم عماله عنده !

غمز الطويل الى القصير باشارة لم تخطر على بال صاحبنا ·· وفجـأة ·· انطلقـا في ضحك صـاخب لا يناسب جو المؤامرة أو السرقة !

ضرب كفيهما معا ·· وصار الأمر مجرد مزحـة ·· وأشار أحدهما الى صاحبنا الغارق في الدهشة ·

ـ اننا صنعنا تمثيلية محكمة ·· أليس كذلك يا صديقى · وأشار الى زميله القصير وقال : كنت أراهن على نجـاح المشهـد التمثيلى ·· وضحك ضحكة عضلية : نجحنا ·· واشار الى صاحبنا ·· انه الجمهور ·· صدق « البروفة ·· » أننا موهبتان بحق ··

أحس صاحبنا بالخبل ·· وأن عقله مثل الزئبق ·· مابين النقلـة والأخرى بون شاسع ·· الحرج يكاد يذبحـه ·· الأسى

يغمره ٠٠ كيف سمح لنفسه بسوء الظن فى زميليه ٠٠ قال لهما

ـ سامحانى ٠٠لقد صدقت التمثيلية ٠٠ عقل محدود ٠٠ وذهنى مكدور ٠٠ مزاجى النكد لم يهضم الدعابة ! يالى من مخرف عجوز ٠٠ استغفر الله ٠

كان صاحبنا صغير الجسم ٠٠ أشيب الرأس ٠٠ دقيق الملامح ٠٠ يرتدى جلبابا أبيض من القطن ٠ فيه أثر بلل من الوضوء وكان مجهد ٠٠ فصلى الفجر ونام ٠٠ وصحى على ما كان بينهما ٠٠ وقال فى صوت ضعيف : أنا ضعيف القلب ! لا أتحمل التمثيليات العنيفة ٠٠ ومضى الى حال سبيلة ٠

- ٢ -

فى مساء اليوم التالى ٠٠ جلس الزملاء الثلاثة حول مائدة مكتظمة بالطعام

قال لزميلة القصير : آمل أن تنسى كلامى السىء ٠

ضحك الرجل وقال : أمازلت تذكر يارجل ٠٠ اننا نعد لك مشهدا مثيرا ٠

قال له مشهدا عنيفا أيضا ٠

واشاح بكفه أن لا يفعل ٠٠

قال الرجل القصير وهو يقضم لقمة كبيرة : نتسلى ٠٠ الحياة تسالى قال الطويل وهو يربت على ظهر صاحبنا : ما أطيب قلبك

ياصديقى .. هل تظن فينا خيانه العيش والملح .. أعوذ بالله .. لا أجمل من القناعة ولا أحلى من الصبر .. وتنهد .. وقال يختتم أكله .. اللهم أجعلها نعمة دائمة

قال القصير يوجه دعابته الى صاحبنا : ما هو أقصى الأمل عندك فى الدنيا .

قال صاحبنا ببساطة : الستر والصحة .

وفجأة .. دخل صاحب المصنع هائجا .. ودخلت معه عاصفة من الفوضى تنطلق ملامحه بالشر والشراسه ..

ـ لقد سرقت .. النقود وبعض المستندات .

علت الدهشه وجوه الجميع .. صمتوا .. بحثوا فى كل مكان فى المصنع والبيت .. الا سكن العمال هنا .. وبلغ الأمر للشرطة ..

وجدوا علبة المستندات ورزمة النقود مدسوسة باتقان فى حقيبة صاحبنا .

علت الدهشة الصفراء وجهه .. الغرفة تدور به .. أقسم أنه لا يعرف أى شيء صرخ لست لصا .. صدقونى ياخلق .. صدقونى .. الموت أفضل من هذا العار ..

ساقوه بغلظة .. كحيوان أجرب .. ومن مكان الى أخر .. ظل يعوى كلب مضروب . وذبحته بصقه من وجه امرأة يعرفها قالت له :

ـ لص .. فاجر .. عيب على شعرك الأبيض .. خدعتنا بمعسول كلامك !

وفى التحقيق ‥ قالو عنه غشاش ‥ منافق ‥ أفاق ‥ زير نساء نمام ، محب للمال ٠

وقال زميله القصير أمام المحقق : النفس أمارة بالسوء ٠

وأما الآخر الطويل فقال : الحرام لا يدوم ‥ لقد ادهشنا تصرفه دائما ٠

عادوا الى المصنع ‥ اختلى الرجل بصاحبه ‥ يطالعن كل شىء بتقدير جديد بينما سار صاحبنا الى درب الاهانة والاجرام ٠

وقال القصير للطويل : ذهب عن طريقنا المغفل بغير رجعة ‥ قال الآخر : لن يعوقنا أحد ‥ حان وقت العمل ٠

وثمة نجة بعيدة في السماء ترسل وميضها فى الفراغ الخالى ٠

• من طرف البندقية •

ما بين الصمت والانفجار .. يلهثون .. ينتعشون لحظة السلام الموقوت بهدنة مزيفة : وبقبع الرجال خلف متاريس من أكياس الرمال .. وبنايات متهدمة .. يدخنون فى عصبية .. يضحكون فى تشنج .. ويمزحون بقيء الألفاظ !

صارت الأشجار مراكز استطلاع .. فهربت العصافير الى المجهول ! .. الشوارع جراح مفتوحة .. والآلام أكثر عريا .

قال مقاتل محترف لزميله : يقولون ان الحرب هى الشر بعينه .

ـ رد الآخر بتأفف : وماذا تقول أنت يا فيلسوف الزمان ؟

ـ انها المجال الحقيقى لكشف حقيقتنا .

ـ وماهى حقيقتنا ؟

ـ رد الجندى وهو يلمع سلاحه : كنا « كانتون » مجرد « كانتون » ! هذه هى الحقيقة

ـ رد الآخر بجفاف : ماذا عن امكانيات بلد صغير مثلنا .. المهم أن الحرب .. لم تكشف حقائق بقدر ما أصابت الشعب

بالذعر والقهر والموت .. فلا انتاج ولا ابداع .. وأن الفئة الوحيدة المتنفعة هى التجار !

ثمة صبية يمرحون فى هـــذا الجو المرعب .. وقد أعفتهم الحرب من الواجبات وسخافات المدارس .. وحماقات أهل العلم وأدعياء الثقافة !!! وهكذا ينظرون الى الدنيا الغلط !

قال صبى لصاحبه فى مرح مريض : الآن نفعل كل شىء .. فكل شىء مباح !!

تحرك الهواء المشحون بالبارود والغبار .. أشـــعل الرجل القابع خلف المتـــريس لفافة تبـــغ كان مشعث الشعر .. منبت الذقن .. منسخ الملابس .. يسعرك منظره بالبؤس والحيرة ، ردد كلماته : التجار الكبار ينتفعون من السلم والحرب ! .. كالمنشار .

أشعل لفافة أخرى لزميله وأعطاه الدخينة .. وراح يطالع الطريق .. يحدق بعين الذئب .

قال رفيقه والدخان يخرج من أنفه : المؤن على وشك النفذ .. نريد النقود .. النقود المال يحل مشكلتنا نحن !! .. والا فلماذا نحارب ! .. ونلبس الكاكى .

كان يحترق .. أضاف (الكلاب وعدونا .. ثم أهملونا) ..

أما الآخر .. فقد غطت الخوذة نصف رأسه العلوى .. فظهر لون الكاكى الممزوج بالأتربة .. همس مؤكدا على كلمات رفيقه .. ولكنه قطع الكلام .. لمح هدفا متحركا .. حدق أكثر .. رجل يرتدى الثياب المدنية .. يحمل فى يده سلة ! .. ظل يتفرس فى اتجاه الهدف .. وأصابعه تحك ذقنه وقال ببساطة : جاء الصيد الينا ولم نذهب اليه .. سوف نحصل على المال والطعام !

كان الظـلام يزحف ·· الشمس تنحدر ببطيء خلف غابات مغبرة ·· وجبال تتربص ·

قال الشاب الآخر وقد سال لعابه : دعه لى ·· لا أريد الكف عن التمرين ·· وهذا جاء لقدره المحتوم ··· (ضـحك ضـحكة خشنة) · وبعد لحظة ستقوم قيامته ··

صوب البندقية باحكام ·· وقد تأكد أن الهدف فى متناول المرمى ·· ضـــغط على الزناد ·· انطلقت طلقة مجنونة تمزق الهواء ·· تصفر فى فزع ·· لتستقر فى صرخة مروعة ·· انتفض ببت من لحم !

نفخ الشاب سلاحه بفخر واعتزاز وقال «استراح الى الأبد» ·· مضت فترة ترقب ·· وصمت ·· لم يقترب أحد من الجثة ·· وقال الشاب : لنمشى اليه فى الوحل حيث سقط !

قال الآخر · هيا ·· نجرده من نقوده وساعته ·· ولنرى ما معه فى السلة ··

وراحا ينتقلان فى الوحل ، بحرص شديد ·

كان القتيل مرميا على وجهه فى الطين ·· وقد مزقت الرصاصة رأســه ، بجدارة واحكام ·· اقترب أحدهما ·· وبقدمه وكعب بندقيته ·· قلبه على الجانب الآخر ··

صرخ الآخر صرخة مرعبة شقت عنان السماء ·

ـ أخى ·· أخى ·· قتلت أخى يا ابن الخنزير !

وبسرعة مدهشة انطلقت رصاصتان فى اتجاهين متضادين ·

وتعانق الثلاثة فى الطين ·· وعلامات الرعب ترتسم على الملامح الزرقاء ·· وبجوارهم سلة طعام مقلوبة ·

كان ثمة من يقول في مكان نظيف مزين بالصور الذهبية ·· وبصوت هادىء وقور لم يعرف الرعب : أحبوا بعضكم بعضا !

الفهرس

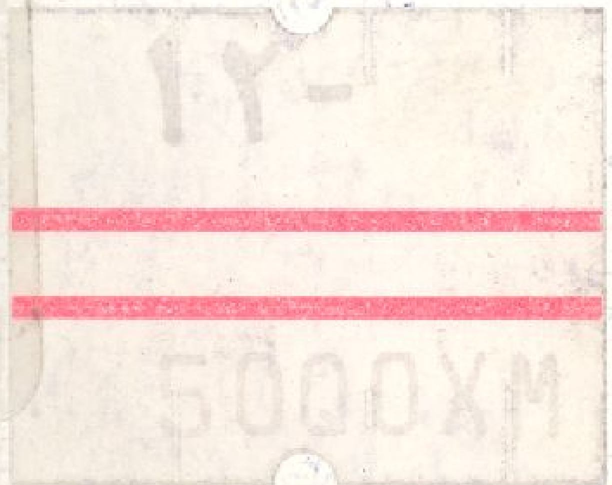
الموضوع	الصفحة
المصيدة	٣
المباغت	٩
عامود النار	١٣
الحب فى قطار الفجر	١٩
الامتحان	٢٥
ثمن الاشياء	٣١
مقابلة هامة	٣٩
الصفقة	٤٧
الهمسة الصاخبة	٥١
ليس للسعادة أجنحة	٥٧
زوجى والظلال	٦٥
شجرة فى الخريف	٧٧
المكالمة القاتلة	٨٩
الزجاجة الفارغة	٩٧
رجل على وشك الانفجار	١٠٣
حكاية الشيخ مبروك وصابرين	١١٣

الموضـــــوع	الصفحه
ليـــــلة العــرس	١٢١
هستيريا	١٢٧
القيـلولة	١٣٣
انتصـــار الهزيمـة	١٣٩
الهروب الى المصيدة	١٥٣
سيف يشتهى القلب	١٦١
الاقلاع عكس الاتجاه	١٦٩
التمثيليـــة	١٧٥
من طرف البندقيـــة	١٨١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢١٧ / ١٩٩١

ISBN — 977 — 01 — 2774 — 4



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب